الطبعة الرابعة
أحمد أبو خنيجر
العَمّة أختُ الرِّجَال
رواية
بردية للنشر و التوزيع

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

العَمَّة أختُ الرِّجَال

أحمد أبو خنيجر

العَمَّة أختُ الرِّجَال

رواية

برديّة للنّشر والتوزيع

©جميع حقوق الطبع محفوظة

Facebook/darbardyah
bardiapublishing@gmail.com
(+2)01000089989
٤٦ ش أحمد زكي- المعادي- القاهرة
١٣ ش السّلام- ميدان صلاح الدّين- الأقصر

أحمد أبو خنيجر
العَمَّة أختُ الرَّجَال
رواية

الطبعة الرابعة ٢٠١٨

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٧٣٧٥
i.s.b.n: 978-977-773-045-7

المدير العام: أدهم العبودي
فوتوغرافيا وتصميم غلاف: د. أحمد جمال عيد
إخراج فنّي: محمد محمود

(جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن كاتبها؛ ولا تعبّر بالضرورة عن آراء وتوجّهات دار النّشر).

كتابُ العمَّة

يكربها يوم الوقفةِ، يفتحُ عليها أبوابَ التذكُّرِ والحنينِ، والوحدة الطويلةِ، رغم ذلك؛ تحاولُ أن تطردَ التكدُّرَ من وجهها، تخافُ أن تلحظَ دواجنها توترها وقلقها فتحرصُ على أن تجعلَ يدها ثابتةً وهي تقدمُ الحبوبَ والطعامَ لها.

يوقظها أذانُ الفجرِ وصوتُ الراديو المفتوح على إذاعة القرآن الكريم، أول ما تفعل تشعلُ نار المَوْقد، تستندُ على عُكَّازها وتخطو إلى حوش الدار لتأتي بالماء، تضعه فوق النَّار، تذهب وتعود بإناءٍ آخر، تأخذُ جزءًا من الماء الذي صار دافئًا، تروح ناحية الزريبة وتفتحُ البابَ لدواجنها التي تندفعُ متصايحةً حولها، تقولُ: صباح الخير. تدخلُ الزريبةَ تقضي حاجتها وتعودُ، لتفردَ المصليةَ، على طرفها تجلسُ وتشرعُ بالوضوءِ، متمهلةً تبدأ، وبحسٍّ صوفيٍ متبتلٍ تقطرُ الماء فوق أعضائها، وفمها يتمتمُ بالأدعيةِ، تبدأُ بالراحلينَ، جدتها، والديها، زوجها، ثم إخوتها الرجال، ثم تُثَنِّي بأولادها، وتثلِّثُ أخيرًا بنفسها، تسأل العليَّ القدير، أن يهبها حسن الخاتمة، وعدم الحاجة، وألا تصبح عُطْلًا.

على عكازها تستندُ كي تقف لأداءِ الصَّلاة، ما إن تفرغ يكون الماء الذي فوقَ النَّار قد غلى، وفراخها وحمامها يفردُ أجنحته يتراقصُ حولها يستحثُّها كي تسرعَ في تجهيزِ وجبته الصباحية الساخنة، تخلطُ الرَدَّة ببواقي العيش الناشف والغلة، القمح أو الذرة البيضاء، وبواقي طبيخ الأمس، إن وجد. تضع كل ذلك في إناءٍ فخاريٍ كبيرٍ، وتصبُّ عليه الماء وتأخذ في تقليبه وهي

تهُشُّ دواجنها كي تنتظر قليلًا، وهي تتقافَزُ حولها، تقوم المشاحنات الصغيرة بين الفراخ والحمام، تنهيه هي بقيامها وحملها الإناء الفخاري، وتسير باتجاه الحوش، تسبقها الدواجن إليه، حيث تحط الإناء على الأرض وتنثر بعضًا من الغلَّةِ حوله، ثم تنقلُ رجلها بعيدًا عن الصِّراع الصَّباحي الدائر حول الإناء، تمشي باتجاه بابِ البيت، تفتحه وتخطو إلى الشارعِ الناعسِ تحت سَطْوةِ الفجر الفاتنة، تأخذ نفسًا عميقًا وهي تقلب عينها الكليلة في الشارعِ علها تلمحُ العائدين من صلاةِ الفجرِ، لكن أذنها تلتقطُ من الراديو صوتَ التَّلبيةِ، ترتعشُ يدها القابضةُ على العُكَّاز، تعودُ إلى داخلِ البيت، وذلك الانقباض يعاودها، وفمها يرددُ التلبيةَ بصوتٍ خفيضٍ، لكنه كاف كي يجعلَ المعاركَ الدائرةَ حول الإناء الفخَّاري تتوقف؛ (لبّيك اللّهم لبّيك)، حالما تنتبهُ إلى سكون دواجنها، تصمت وتتحركُ بتثاقلٍ باتجاه سجَّادة الصلاة وتقعد عليها.

(لبّيك اللّهم لبّيك).

ترددُ بتبتُّلٍ هادئٍ -من فوق مُصَلِّيتها- مع الهديرِ المتدفق للتلبيةِ من ملايين الأفواهِ الواقفة فوق عرفاتٍ، كم تتمنَّى -الآن تحديدًا- أن تكون بين هذه الملايين، جسدًا صغيرًا، ضعيفًا وعجوزًا، يهتفُ بملء الروح التواقة: (لبّيك اللّهم لبيك). لكن ما العمل والعمرُ يمضي دون مقدرةٍ، ودون أملٍ واضحٍ في تحقيق هذا الحُلم في يوم من الأيَّام؟ حين عرض أولادها أن تبيعَ قطعةَ الأرض التي تمتلكها، ويكملون هم الباقي، كي تسافرُ وتقضي الفريضة، أجابت بحسم: لا. وهم الذين يعرفون تصلبَ أمهم لم يعاودوا العرض، تقول في نفسها: وماذا تفعلُ حتةُ الأرضِ الصغيرةِ، والتي أعيشُ منها الآن، يد أبي وإخوتي الرجال وزوجي وهم -أولادي- وعرقهم، كيف أبيعه؟ إن جزءًا منِّي، من تاريخي يتواجدُ هناك، يظل شاهدًا على مروري بهذه الدنيا، أألغي -ببساطةٍ هكذا- مكاني فوق هذه الدنيا؟!

(لبّيك اللّهم لبّيك).

ذكرُ الحمام الذي لحظ تمايل جسدِ السيدةِ مع ارتفاعِ صوتها المُنغَّم تقدَّم حتى وقفَ عند أقدامها، وهدلَ بصوتٍ خفيض جعل باقي الحمام يترك ما يلتقطه من حبوب ويهدل ردًا عليه، متقدمًا نحوه، على حوافِّ المصلية يقف الحمامُ، وهو يهدلُ موافقًا بين صوته وصوت السيدة التي ترددُ التلبية بوجدٍ صوفي بالغ الصفاء، يتمايل جسدها وعينها مغمضة، كأنما تحلق في سماء الحمى، يرفرف حولها الحمام ويهدل، تسمع صوته واضحًا، بأذنيْها، متجاوبًا مع هدير الحجيج، صوتها ضائعٌ وسط هذه الأصوات التي تتصاعدُ في السَّماء، تحرقها النشوة، تزغردُ بصدرها، تجعل الدَّمع يطرفُ من عينيها، ساخنًا، يكوي أخاديدَ الوجه المتبتِّل، تنبسطُ التجاعيدَ وتنفردُ ساحة للدمع بالتحدُّرِ إلي ذقنِها الذي يرتجفُ بشدَّةٍ وبخفةٍ بالغةٍ مما يجعلُ التلبيةَ تتحشرجُ في صدرها بفعلِ البُكاءِ، تنفتح عينها، لترى من خلالِ غبَشِ دموعها، حمامها واقف حول حوافِّ المصليةِ يهدلُ كأنَّه في جوقةٍ بصوتٍ ناعمٍ ورقيق، الدجاجُ من خلفهِ بركَ حولَ قدميها متكومًا فوقَ بعضِه، دونَ ضغينةٍ ولا مُشاحناتٍ، وهيَ التي أربَكَها المشهدُ، حاولتْ التيقُّنَ، فأسكتت صوتها أولًا، ومدت أصابعها المرتجفة لتجفف الدمع المتدفق من عينيها، لحظتئذٍ غادر الحمام والدَّجاج مرابضه من حولها وجرى عائدًا إلى وجبته الصباحيةِ وقد عادت إليه حيويَّته وخناقته الصغيرة.

تشرقُ الشمسُ معلنةً عن صباحٍ خريفيٍ شديد الوضوح، السماء صافيةٌ وإن كانت سحبٌ رماديةٌ خفيفةٌ متناثرةٌ هنا، وهناك، لا تنظر إليها السيدة وهي تظلل عينيها التي ما يزال أثر الدمع بها، تقول: شمس الوقفة، شمس عرفاتٍ، تشرق بدون حرارةٍ، صفراء، ضوء دون حرارة، ليرحم الله ضيوفه، ويعينهم على أداء مناسكه.

ترفع يديها بالدعاء، وهي تواجه الشمس: يا رب. تتمتم قليلًا، ثم تخفض يديها، تستند على عُكَّازها وتروحُ ناحية الباب، تفتحه وتعود، هكذا عادتها كل صباح، عند شروق الشمس تفتح الباب وتتركه مفتوحًا حتى انتصاف النهار، تجلس في ظله ترقب الشارع، تتبادل حديثًا خفيفًا مع العابرين، تستعلمُ فيه عن أحوالهم ويطمئنون على أحوالها، بعضهم قد يدخل ليشرب من زيرها المنصوب بجوار الباب، بعض النساء يجلسن معها قليلًا يتعاطين الثرثرة لوقت ثم يذهبن.

وهي قاعدة -الآن- بعد أن فتحت الباب، تذكرت أن الولد عيد -جارها- لم يمُرّ عليها حتى الآن، قالت: بعد أن أُطعم البهيمة، سأذهب للسؤال عنه.

تناولت حزمة البرسيم من فوق السرير الجريد الموضوع بحوش البيت، الذي تنام فوقه بعد صلاة العشاء في الليالي الصائفة، قبل أن تنتقل قبل الفجر إلى سريرها، أخذت حزمة البرسيم تحت إبطها، وبالعُكَّاز دفعت باب الزريبة، اندفعت نحوها النعجة الوحيدة، والعجوز أيضًا، التي تربيها

هي ووليدها الخروف، دخلت وردت الباب وراءها، ألقت البرسيم إليها وجلست ترْقُبها بهدوءٍ.

منذ زمنٍ بعيدٍ، لا تدرى الآن طوله، والنعجة عندها، هي وحدها فقط، في كل عامٍ تلد خروفًا، تذبحه السيدة يوم عيد الأضحى، هذا العام لم تحبل نعجتها، وهذا أقلقها كثيرًا، هل أصبحت عجوزًا هي الأخرى؟ تساءلت: أيكون رحمها قد أفرغ كل خرافه؟ كل عامٍ والنعجة تأتي بوليدٍ واحدٍ فقط، غالبًا ما يكون ذكرًا، خروفًا، وفي معظم الأحيان تضعه في الأيام الأولي من شهر ذي الحجة، ويظل الوليد معها يكبر حتى يستوي خروفًا عفيًّا، يُلقِّح أمه، ويكون جاهزًا للذبح يوم العيد، مرةً واحدةً تأخر وضعها إلى ثاني أيام العيد، في يوم العيد حين أُخِذَ الخروف منها للذبح، ظلت النعجة تصرخ طوال اليوم وصامت عن الأكل والشرب، والسيدة التي خبرت الألم والحزن، قالت يومها: لو أنّ حياتنا تمرُّ دون أن يقترب الألم أو الحزن منها! يومها ابتهلتْ للرحمن أن يرحمَ نعجتها ولا يجعل ولادتها تتأخر إلى بعد يوم العيد.

الآن ها هو آخر خروف تضعه نعجتها العجوز، كيف ستتحمل فراقه في الغد، تساءلت السيدة؛ ثم أضافت: والعيد القادم! من أين آتي له بخروفٍ؟ وهي عادةً لا يمكن أن أقطعها! هل أبيع نعجتي التي تربّت معي وغذتني بلبنها؟ نعجتي! وقبل أن تسترسل دهمها خاطر: وهل سأكون موجودة في العيد القادم؟ أم أن عقم نعجتي إشارة؛ إشارة للرحيل؟!

بهدوءٍ قامت وخرجت من الزريبة، ما إن خطتْ خارج الزريبة حتى هاجمها ضجيجٌ قديمٌ، كأنما انبعث فجأةً، سمعت الأصوات تتردد بتداخلٍ بأرجاء البيت الوسيع الذي لا تستعمل -الآن- إلا جزءًا قليلًا منه. أصوات؛ والدها، وجدتها فاطمة، التي سُمِّيَت باسمها، والدتها، إخوتها الرجال، صهيل الخيل في مرابطها، عراكُ أمها مع الدجاج والبَطِّ والحمام، صوت القهوة فوق راكية النار أمام جدتها، همس الجدة لوالدها، صوتها وهي صغيرةٌ تجري متقافزةً بين أرجل الجميع ضحكاتها ورغباتها المجابة، صوتها الصغير يقول: أريد المهرةَ الآن.

مندهشة توقفت، تتلفت حولها، تحاول تبين الركن الذي تنبعث منه الأصوات، تدور حول نفسها، والأصوات تدور حولها: بعد غدٍ سأجري بها، انتظر قليلًا، نهيق حمارٍ، ماءٌ يدلق على الأرض، اذهب إلى عمك، دعك من هذه الملعونة، نقارٌ بين ذكور البط، صوت ريحٍ خفيفةٍ تمرُّ، أهلًا يا مصطفي، القهوة تغلي فوق النار، من يقدر على منازلتي، خذ القمح واذهب إلى الطاحون، صوت ارتشاف القهوة، قل لها أن تلمَّ نفسها، رفرفة أجنحة الحمام، مواء قطةٍ، ملابس تخلع، الله يدبر الأحوال، خذ المهرة كي تحميها، نباح كلبٍ، ملعونٌ أبوك، أنت السبب، الريح تحرك جريد النخلة، كيفما أصبحت يا جدة، أخاف على هذه البنية، هدوم تُرتدى، جذع النخلة يتمايل، بخير يا مصطفى.

كيف أبوك، هي أخت الرجال، أريد ركوبها الآن؟

كم كان العمر وقتها؟ تساءلت السيدة وهي تدور حول نفسها، لم تستطع أن تخمن المكان الذي تنفجر الأصوات منه؛ لم تكن لديها إجابةً حاسمةً، أو حتى دقيقةً حول مسألة العمر هذه، ربما كانت في بداية طريقها لتصبح فتاة، تذكر-الآن- أن خرَّاط البنات –على الأقل- كان يغامر كي يزورها ليلًا، ليجعل جسدها يستدير، كما تقول جدتها لما تأخذها في حضنها: بالليل عندما تنامين، يأتي خراط البنات، متلصصًا، يرقب إخوتك الرجال، ولما تأخذهم الغفلة، يدخل إليك، تكونين نائمةً، يعمل يديه في جسدك، كي يأخذ استدارته ومنحنياته، ويهبك جسدًا مختلفًا عن كل النساء.

تبتسم الآن لصوت جدتها التي كانت تنام بجوارها؛ مد الأصوات بدأ يخفت، حركت رأسها كي تلحق به، دلتها أذنها على مكمنه الذي يتصاعد منه، من عند النخلة حيث كانت تجلس جدتها، وبجوارها والدها، ويدها تقلب جمر الراكية، تسوي القهوة الصباحية، التي يتناولها الجميع، وبعد أن يفرغوا، كلٌّ يتجه إلى عمله الذي يكلف به أثناء تناول القهوة.

تقدمت نحو النخلة، البعيدة، والقائمة في سرة البيت، البيت الكبير، الذي صار خاليًا إلا منها.

حين وصلت إلى النخلة، كان التعب قد هدها تمامًا، فالمسافة بعيدة، وهي لم تخطها منذ وقت طويل، جلست في الظل مستندة على جذع النخلة، بالكاد بصرها الضعيف يستطيع تمييز باب البيت المفتوح، هي الآن وسط البيت، الذي لا تسكن إلا في الجزء الأمامي منه، بحسبة بسيطة ترى أن استخدامها للبيت يتناسب عكسيًا مع معدل عمرها. في البداية، حين كانت صغيرة، البيت كله تدوسه بقدمها؛ من حجرتها مع جدتها، إلى حجرة والدها ووالدتها إلى حجرات إخوتها الرجال، إلى زرائب البهائم والدواجن وأبراج الحمام وإسطبل الخيل والنخلة وحجرات الخزين، ومندرة الضيوف، كل ذلك مباحًا لها في أية لحظة تشاء.

حين كبرت، بدأت في الاستئذان، في البداية حجرة والديها ثم إخوتها، كان كلما يتقدم الزمن ويشتد عودها، تقل الأماكن المباحة لتواجدها في أي وقت كما كان تفعل حين كانت صغيرة، ثم تزوَج إخوتها الرجال، وتزوجت هي، وصار البيت أضيق كثيرًا، وجاء أولادها، ورحل الجميع وتركوها وحيدة داخل هذا البيت الذي تجلس الآن في سرته، تحت النخلة، ولا تتذكر متى كانت آخر مرة جلست فيها بجوار النخل.

تقول وهي تتنهد: لكل ابن آدم بحر يعبره، وطريق يخطوه. لكن ما تعجب له، وهو ما يحدث لها كثيرًا في الآونة الأخيرة؛ هو هبوب الأصوات حولها دون سابق تمهيد، كأنما ذاكرتها تعاندها، حين تحاول تذكر أشياء بعينها لا تساعدها الذاكرة، بل تتنكر لها، وتتركها في عماء الحيرة والتخبط

وتدفع بذكريات أخرى، لا تريدها، لتجد روحها مشوشةً، مضطربةً، فما يحدث يناقض طريقتها في الحياة، طوال عمرها وهي تحاول جاهدةً أن تملك خياراتها، تملك طرقها التي تخطوها، كما كانت تقبض على أعنة المهرة حين تجري في السباق. تقول: اللجام في يدي، وبدكّة من الركاب بقدمي في بطن المهرة، أصل إلى نهاية السباق في الوقت الذي أريد، لكن الآن، وذاكرتها تلاعبها وتتركها عرضة للحيرة، وتذكرها في نفس الوقت بالضعف وقلة الحيلة تجاه الزمن.

تقول: إن ما يقهرني هو الزمن، الزمن ليس إلا، لكني لا أريد الألم، يكفيني ما جربته منه، فقط يا ربي لو تمضي الحياة بلا حزنٍ، بلا ألمٍ، بلا ذاكرة خئون، وزمن قاس لا يرحم، يسم البدن بعلاماته.

مدَّت يدها تحسس جذع النخلة، النخلة عمة البشر؛ كما كان تقول جدتها. تحاول أن تقارن الخشونة التي تحسها الآن بكفها والخشونة القديمة، حين كان كفها صغيرًا وهي تصعد متسلقةً الجذع، وإخوتها الرجال، البعض يشجعها، والآخر ينهرها، وأمها تنظر لها وهي تخطو في وسع البيت، تأمرها بالنزول، لكن الجدة تقول: اتركيها. تهزُّ الأمُّ رأسها وتمضي في طريقها، سألت جدتها: من زرع النخلة؟ قالت: جدي كان رجلاً مبروكًا. ما الذي يحدث لذاكرتها تحاول لو تمسك بفوارق الزمن والإحساس، لكن بذاكرتها تطفو أشياء بعيدة، تظن أنها قد نسيتها، أو

توارت في ظل مشاغل الحياة المتلاحقة، لكن كيف الاطمئنان لذاكرة بمثل هذا الجنون والعبث.

منذ فترة حين بدأت تنتبه لألاعيب ذاكرتها، أولت اهتمامها إلى مثانتها، فحرصًا منها على طهرها التام وقت الصلاة، ما إن تقف فوق سجادة الصلاة بعد أن تفرغ من وضوئها، حتى تسرع بخلع سروالها، فما دامت ذاكرتها تلاعبها، فما يدريها أن مثانتها لا تغافلها، وتنزل ولو نقاطًا قليلة من البول لا تجد لها أثرًا بسروالها، مع تكرار الخلع، صارت عادة، هكذا ضحكت في سرها من الزمن، تقول: عليّ أن أقوم بتحويل بعض الأفعال إلى عادة، وإلا تحالف الزمن والذاكرة عليّ.

رفعت يديها بالدعاء: يا رب هبني القوة والقدرة. وقبل أن تكمل لمحت زوالًا تراءى لها داخلًا من الباب، ووصل إلى سمعها صوت نسوي ينادي عليها: يا عمة.

- يا حاجة فاطمة.

إنها عزيزة زوجة عيد، جارتها، هي التي دائمًا تناديها هكذا، تبدأ عند الباب يا عمة ثم ما أن تتخطى عتبة الدار حتى ترفع صوتها للمرة الثانية: يا حاجة فاطمة. وقدمها تبحث عن موضع السيدة، والتي غالبًا في الفترة الأخيرة تكون مختفيةً في أحد أركان الدار الوسيع، قالت لها مرة بعد أن تعبت من البحث عنها: لا أدرى يا ابنتي ما الذي يدفعني إلى التجول داخل حجرات البيت المهجورة، لكنه هاجس يطن برأسي فجأة لأجد نفسي في واحدٍ من أركان البيت، عمّ أبحث؟! لا أعرف!

- أهلًا يا عزيزة.

جلست عزيزة بجوارها في ظل النخلة المفروش فوق الحشائش القصيرة النابتة بكثافة وتوحش كأنها تريد السيطرة علي أرضية البيت، فالحشائش بعد أن فردت سلطانها علي الأرض -في مناطق كثيرةٍ منها خاصةً الترابية- بدأت التوسُّع في مملكتها، ومدتْ ظل سلطانها إلى الحوائط، وبدأت في التسلق والإنبات من خلال الشقوق الكثيرة الناتجة من تصدع الحوائط.

- كل سنة طيبة يا عمة.

- وأنتِ بخير.

ردَّتْ السيدة وهي تداري ارتجاف يدها، وقالت قبل أن تلحظ عزيزة: تقرصني يدي من أول النهار.

وعزيزة التي لحظت الارتجاف، لم يفُتها التلميح، وعلقت بشرود وهي تتابع زوجًا من السحالي يسير متخفيًا بين الحشائش: خير، إن شاء الله خير.

وأرادت أن تكمل، غير أنها توقفت لما رأت فأرًا صغيرًا يطل برأسه من أحد الجحور، فغيرت الموضوع قائلةً: أعطني الدقيق يا عمة.

تنهدت العمة وهي تطحن في جوفها سؤالًا يسيطر على حواسها: لماذا الإصرار على تذكيري بأننا في يوم الوقفة؟ وعزيزة التي رأت تلكؤ العمة قالت مشجعةً: عادة، وربنا ما يقطعها.

منذ سنوات، وعزيزة تأتي في وقفة العيدين؛ الفطر والأضحى، ويوم ستة وعشرين رجب، وعاشورًا، تأخذ الدقيق تخبزه للسيدة؛ كعكًا وقرصًا تقوم العمة بتوزيعها على الأطفال لما يحضروا إليها، خاصة في جلسات ما بعد صلاة العشاء، حيث تقوم بقص بعض الحكايات القديمة لهم، والأطفال يعرفون فيأتون ليأخذوا الكعك ويستمعون إلى الحكايات التي ربما يكونون قد سمعوها قبل ذلك أو في مرات سابقة، لكنهم في كل مرة يجدون فيها لذة جديدة، تعادل لذة الكعك الذي تحرص العمة على عجنه بالسكر لما كانت قادرة وعفية، وأوصت به عزيزة حين كفت يدها عن العجن والخبيز.

تقول العمة: الأطفال هم أحق بهذا الكعك، لأن أرواحهم طاهرة. كما أرواح موتاها الذين توزع الكعك صدقة على أرواحهم بعد وفاتهم، موتاها كما تذكر دائمًا؛ جدتها، والدها، والدتها، إخوتها الثلاثة، الرجال، زوجها، ابنها البكري، والصغير علي، ثم أرواح المسلمين.

أبدًا لم تذهب إلى المقابر، لم تقم بزيارة واحدة لها، كانت تودع النعش عند الباب الكبير للبيت، تقول: مع السلامة، وتعود.

عزيزة التي حيرها عدم خروج العمة إلى المقابر مع النساء، ظلت فترة متهيبة أن تسألها، إلى أن تجاسرت مرة وسألت، أجابتها العمة بهدوء بالغ: أرواح الموتى، يا ابنتي، لا تعيش في المقابر، إنما تأتي إلى بيتها الذي اعتادته، أما الجسد، التراب، فيبقى هناك للتراب.

قامت السيدة، وأخرجت الدقيق والسكر وأعطته لعزيزة، وسارت معها حتى الباب الخارجي، ودواجنها حولها، تحت أقدام المرأتين، السيدة تهشها بعكازها، فتبتعد قليلًا، ثم تعاود متابعتها للمرأتين، عند الباب وقبل أن تغادر عزيزة، سألتها العمة: فين الولد عيد؟

قالت عزيزة وهي تعدل من حمل الدقيق فوق ذراعيها: منذ أن خرج إلى صلاة الفجر لم يعد و...

قاطعتها العمة كي تنهي وقفتها أمام الباب: الغائب معه حجته. وقفلت راجعة وهي تهش دواجنها أمامها.

عيد هذا الذي تسميه ولدًا، في حوالي الستين من عمره، في عمر ابنها البكري الراحل، تجمعهما قرابة بعيدة، نشأ في دارها، بين أولادها الذين فرقتهم الدنيا وأخذتهم إلى أطرافها المتباعدة، وهي الآن لا تحمل ضغينة لأي منهم، فقط في بعض الأحيان يقهرها الهجر والترك، تنزوي في ركن من البيت، بعيدًا عن أعين دواجنها ونعجتها، وتأخذ في النَّهنهةِ بصوتٍ مكتومٍ، لكنها أبدًا لم تسمح للنسوة اللاتي يأتين للثرثرة معها بذمِّ أطفالها ووصفهم بالعقوق وعدم العطف على والدتهم، كانت تخرس هواجس الكلام بحلوقهنَّ بحزمٍ حين تقول: نحن عبرنا بحورنا، وعليهم الآن أن يسبحوا في بحور حياتهم.

منزل عيد مجاور لمنزلها كما هو الآن، يأتي لها عقب صلاة الفجر يطمئن عليها ويتناول معها قهوة الصباح التي ورثت صناعتها من جدتها، تخبره عما تحتاج، يأتيها مرة ثانية قبل الغروب حاملًا فوق ذراعه بعضًا من البرسيم أو أعواد الذرة، أو الحشائش لنعجتها وخروفها، المرة الثالثة بعد صلاة العشاء وتكون هناك زوجته عزيزة وأطفاله وبعض من نساء الجيرة وأطفالهنَّ حيث تمارس السيدة طقوس حكيها المتعدد في الآونة الأخيرة.

بدأ عيد ينتبه إلى أن حكايتها تختلط ببعضها أو تغير منها، في البداية تدخل كي يعدل من الحكايات ويعيد السيدة إلى درب الحكاية الصحيح، يقول: يا عمة، ما كشف قاسم للأربعين حرامي هو عطاسه، وليس لأنه أخرج ريحًا.

ضحكت حتى بان الناب المتبقي في فمها: وأنت يا ولد ما أدراك، أنت صغير حتى تعرف أن الخائف لا يعطس، بل يُخرج ريحًا عفنة، نتنة، كرائحة كلامك الذي لا تدرك معناه ولا تحسن مخارجه.

ينطلق الحاضرون في ضحكٍ قاسٍ يحرجه؛ فيلم لسانه الجاهز بالرد، لأنه يعرف سلاطة لسانها خاصةً ساعة الحكي، وقدرتها العالية على السخرية، حتى من أبطال الحكايات ذاتهم، حتى عندما تخلط وتحكي عن وقائع من حياتها، لا تسلم شخصيتها من الانتقاد اللاذع، لحظتها يطلب من عزيزة زوجته أن تعدَّ الحجر والجوزة كي يدخِّن، قبل أن تلحق به العمة في الحجر الثاني، لأنها ساعتها تعرف أنها آذته، فتلملم أذيال حكايتها سريعًا، وتذهب للجلوس بجواره، تأخذ منه مَبْسم الجوزة وهي تقول: زعلت يا ولد.

لا يرد، وعزيزة تقوم تأخذ أطفالها وتتبعها باقي النساء وأطفالهنَّ، ليخلوا المكان والجو لهما، يشربان الحجر الثالث، دون كلمةٍ واحدةٍ، فقط يتبادلان المبسم بودٍّ ومعرفةٍ قديمةٍ، وعندما ينتهي، تقول له: تصبح على خير، لا تتأخر على عزيزة، هيا قم.

من يومها ولم يعد يتدخل في حكايتها، لكنه في كل مرة يتنامي داخله الإحساس بأن الحكايات تلعب معها، وتتقافز إلى ذهنها كيف تشاء، وأن قدرة السيدة على إيقاف هذه الألعاب وردعها باتت ضعيفةً، بل إن شكه ازداد في أن تكون العمة عارفة بما يحدث لحكايتها.

جالسة الآن فوق سريرها بصالة البيت، ترقب الضحى الذي بدأ في الإعلان عن نفسه من خلال هبَّة نسيمٍ دافئةٍ، دواجنها تناومت تحت السرير بجوار قدميها المتدليتين، والراديو ما يزال يصدح بالتلبية الجهيرة المنطلقة من قلوب الحجيج فوق عرفاتٍ، قالت: أيام العيد هي موسم حصادك يا عيد.

إذا كان عيد يُفَلِّح القراريط المعدودة التي ورثها بالإضافة إلى قراريط السيدة، فهو فنانٌ، خطاطٌ، رسامٌ، نقاشٌ، ورث هذه المهنة عن أبيه الذي ورثها أيضًا عن أبيه الذي...

يذهب الناس إلى الحج أو العمرة أو يتزوجون، أو يبنون دورًا جديدةً، فيذهبون إلى عيد الذي يُحْضِرُ الجير الأبيض ويخلطه بزهرةٍ زرقاءَ -يجعلها خفيفةً- ويدهن الحوائط المبلَّطة بالطين، يجعل صبيانه يقومون بهذا العمل، أما هو فدوره قادمٌ بعد أن يجف الجير، يكون قد أعد صفائح الألوان، والأقلام التي يحضرها من جريد النخل، يأخذ الجريدة ويقسمها إلى قطعٍ متساويةٍ، ثم يقشر هذه القطع ليظهر قلب الجريدة الأبيض، بمطواةٍ حادةٍ يبري القلب، أحيانًا يجعله كفرشاةٍ، ثم يضعها لمدة ليلةٍ كاملةٍ في ماءٍ مملَّحٍ، في الصباح التالي تكون جاهزةً للاستعمال، يبدأ أولًا بمقدمة البيت، تحديدًا فوق الباب، يكتب على الحائط الذي صار لونه أبيض بزرقةٍ خفيفةٍ، بسم الله الرحمن الرحيم، يكتبها بخطٍ يخُصُّه هو، لا يجاريه فيه أحد، ولم تذكره الخطوط العربية وأنواعها المختلفة، كان يعطي الأحرفَ فخامةً وهيبةً، تجعلك تحس برعشة إجلالٍ وأنت تنظر إليها، حين سأله أحد طلاب الفنون: من أين تأتي بهذه الخطوط؟ كان يجيب ببساطةٍ واعتياد: والله يا ابني لا أعرف، هكذا أراه مرسومًا داخلي، فأمد يدي لأنفذه.

بعد أن يفرغ من الواجهة التي يكون قد كتب عليها أيضًا اسم صاحب الدار والمناسبة التي تطل فيها، وكتب على الجوانب بعضًا من الآيات

القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على المناسبة، وأيضًا يا داخل هذا الدار، صلي على النبي المختار، وغيرها من العبارات التي غالبًا ما ينوّع في الخطوط التي يستخدمها مع كل عبارةٍ، ما أن يفرغ تمامًا من الكتابة حتى ينزل من فوق السقالة، يسند ظهره إلى الجدار المقابل يحتسي الشاي مع حجر الجوزة وهو يتأمل خطوطه، ويقيس ويحدد بعينيه الأماكن التي سوف يقوم بتنفيذ رسومه فيها، مرة ثانية يعود إلى صفائح ألوانه، وينقل السقالة إلى الأماكن التي حددها، ثم يبدأ بالرسم، حسب طبيعة المناسبة أيضًا لكن هناك رسومًا دائمًا يكررها، كالخيل المتسابقة، ألعاب التَّحطيب، بعض النخيل والمراكب والورود.

في الآونة الأخيرة، ظهر بعض المنافسين الذين يقومون بأعمال الدِّهان والجير والكتابة والرسم بخطوطٍ وألوانٍ رديئةٍ، لكنهم أكثر جرأةً منه في تلاوينهم داخل المنازل، خاصة حُجر النوم إذا كانت تعد لاستقبال عروسين؛ ثم الأهم من ذلك رخص أسعارهم بالمقارنة معه.

لذا صار عمله موقوفًا على الرسم والكتابة فوق حوائط الذاهبين إلى الحج والعمرة، حيث لا يقدر أن يقارن به أحد، لدرجة أن بعض الحجيج و المعتمرين، يعتبرون أن حجهم أو عمرتهم ناقص إذا لم يقم عيد برسم وتزيين حوائطهم الخارجية.

حكاية

الحكاية القديمة تقول أن جد عيد الكبير، والذي كان اسمه عيدًا أيضًا، لما كان صغيرًا، أرسله والده ليساعد الشيخ حسن التُّرَبي ويتعلم منه النقش على الأحجار، حيث يقوم الشيخ بكتابة شواهد الموتى، ووضعها فوق قبورهم، وكان الشيخ فظًّا غليظًا؛ في يومٍ لمح عيدًا منتحيًا بجوار السبيل الذي يلاصق المقابر وبيده الأزميل، وبين قدميه حجر، يجرِّبُ النقش عليه، فما كان من الشيخ إلا خطف الأزميل من يد الصبي وكسر الحجر وانهال على الصبي ضربًا ولعنًا، حتى سالت دماء الصبي الذي لم يحتمل، ففر هاربًا من قبضة الشيخ، قاطعًا المقابر إلى الجهة الأخرى حيث النهر، ووقف هناك يبكي بحرقة متسائلًا عن الذنب الذي ارتكبه في حق الشيخ حتى يفعل به هكذا.

في غمرة بكائه لم يشعر إلا ويدٌ تحطُّ على كتفه، كانت يد سيدنا الخضر، والتي مسحت دمع الولد، وقال له: لا تحزن. وغرف من ماء النهر وسقى الصبيَّ، ثم قال له: إذا كان الشيخ يكتب للأموات، سأجعلك تكتب وترسم للأحياء. الصبيُّ الذي لم يفهم بانت على ملامحه الدهشة والاستغراب والخوف، لأنه يجهل شخصية الرجل الذي يحدثه.

أخذ سيدنا الخضر كف الصبي بين يديه، ثم قبض على إصبعه الشاهد الأيمن، وجلس وأجلس الصبي بجوار الماء، وخط خطوطًا ورسومًا وأحرفًا فوق الماء، رآها الصبيُّ تتجسد أمام عينيه، كأنما تكتب فوق لوحٍ، ثم نفخ سيدنا الخضر في وجه الصبي وصدره وقال له: اذهب. لكن عيد

قبل أن يذهب سأل سيدنا الخضر أن يجعلها وراثةً في نسله، فضحك سيدنا الخضر وقال: أنت طماعٌ يا عيد، لكنها ستكون وراثةً في الأبكار الذكور من صُلبكَ.

أفاقتْ السيدة من تهويماتها على صوت خبطات على الباب، وقفت لترى من الطَّارق الذي يتقدم نحوها عبر باحة الدار.

- كل سنة وأنت طيبة يا عمة والعام القادم على جبل عرفات.

- جمعًا إن شاء الله يا ولدي.

إنه الحاجُّ أحمد مؤذن الجامع الذي لا تراه إلا من العيد للعيد، حيث يأتي لينظف الساحة التي خارج منزلها، حيث تقام صلاة العيد.

سلم وجلس بجوارها على السرير مستعلمًا عن صحتها وأحوالها وهي تجيب بلفظة واحدة: الحمد لله. قام وراح للزير وشرب وهي قامت لتعدَّ له الشاي لكنه رفض قائلًا: سأشربه بعد العصر لما آتي لتنظيف الساحة من الحجارة وكنسها.

اتجه ناحية الباب ليخرج، وهي تمددت فوق سريرها، وقالت: نسيت أن أسأله عن الولد عيد.

فصلٌ في ذكر البناء

كانت التجارة زاهيةً، والأيام تقبل ضاحكةً في وجه الجَدِّ الشَّكَّاك، المَوَسْوس بقدرة العين على فلق الحجر، في تلك الأيام البعيدةِ كان الجَدُّ خارجًا من زواج تُوِّجَ بخمسة أبطنٍ، كلها ذكور، وزوجته حاملٌ في البطن السادس، وعياله يجرون معه في تجارته، وهو في حاجةٍ للمزيد من الرِّجال، لأنه -حسب رأيه- أن تجارته تحتاج إلى رجال أَشِدَّاء، مخلصين، أمناء.

حين هاجمت قافلته التجارية العائدة من السودان، جماعة من اللصوص استطاعت أن تنهب الكثير من الإبل والعبيد، رغم حرصه على دفع مكوسِ الطريق إلى العربان ونقط الحماية المنتشرة على درب الأربعين الصحراوي، وإرسال العيون في الطريق للاستطلاع، إلا أن اللصوص هاجموا القافلة.

ولَمَّا كان دائم التعديل في خطط سير القافلة، فأتاه يقين داخلي بأن أحد رجاله أو مجموعةً منهم تخونه، لم يستطع أن يحذْر من هم؟ كان همه الأساسي -في تلك اللحظة- وبطبيعة الحال، إنقاذ أكبر قدرٍ من القافلة.

كانت خبرته بطرق الصحراء وطبائع الرجال عالية، فأدرك منذ البداية أن ولاء الرجال صعب الحصول عليه، مهما كانت المغريات، فالمال -مثلًا- دائمًا ما يوجد من يدفع أكثر، واللصوص جاهزون دائمًا لشراء الذمم.

كان طموحه تكوين مجموعةٍ قويةٍ مأمونةٍ يربطها الدم قبل أن تدعمها المصالح التجارية، غيّر الرجال وبدلهم أكثر من مرة، لكن خوفه وشكه الدائم لم يتبدَّل، كان يتمنى أن يزرع طريق القافلة كله برجالٍ ينتمون إليه، إلى صلبه، إلى دمه، ولما كان هذا محالًا، فقد أوعز إلى إخوته؛ شركائه

بالتجارة، بفكرته التي مؤداها الإكثار من إنجاب الأطفال، الذكور، كان لا يعير الإناث التفاتًا، كان يقول: هن خلقن للبيوت، وجرنا إلى لحظة راحةٍ ناعسةٍ. لذلك عندما وضعت زوجته البطن السادسة، وكانت أنثى، قرر بسرعة وحسم؛ الزواج مرة أخرى.

لإيمانه بقدرة العين الحاسدة والكارهة، قرر أن يبني بيته بعيدًا عن القرية، عند أطرافها، عند مدخلها من ناحية الصحراء، حيث يمكنه الولوج والخروج إلى الصحراء بعيدًا عن أعين القرية التي لا تفعل شيئًا – حسب نظرته– إلا عد الداخل والخارج من العبيد والإبل والتعليق الساخر والوشاية به أحيانًا كثيرةً.

ذهب شمالًا وعاد معه عصبةٌ من البنَّاءين، أراهم المساحة المراد البناء عليها، قسمها لهم، قال: هنا الواجهة، أريدها عاليةً وقويةً، عصيَّةً على الاختراق، تشبهُ بناء المعابد، على الأجناب غرفٌ كثيرةٌ، بعضها متداخلٌ، من يدخلها لا يستطيع الخروج منها بسهولة إلا بصحبة العارف بطريق الخروج من متاهتها. الحوائط عاليةٌ، متينةٌ وقويةٌ، تقوم في أساساتها على الحجر الأبيض والأسود الذي جاء من الجبل القائم خلف البيت، بعد نهوض الحوائط، أكمل البناء بالطوب اللبن، لتمنح البيت رطوبةً دائمةً في أشهر الصيف، ودفئًا خلال أيام البرد، جاء بجذوع النَّخل المفرودةِ والصَّلبة وأشجار السَّنط والكافور والأثل كي يعرّش عليها سقيفة البيت

من جريد النخل، بعدها جاء بالطين المخمَّر جيدًا وبلَّط الحوائط والأسقف بطبقةٍ سميكةٍ منه.

فوق سطح البيت جعل نقط حراسةٍ مخفيةٍ لا يمكن للناظر من خارج البيت أن يراها، في خلفية المنزل بنى الزرائب وقسمها إلى ثلاثة أنواع؛ واحدةٌ للذكور، والثانية للإماء، والثالثة للإبل، وزوَّدها -في الأركان- بالسلاسل الحديديَّة، حيث يتمُّ ربط العبيد بالسلاسل، خوفًا من هربهم، وكذلك لمنع تدافع البهائم.

يقال إن البناء استمر وقتًا طويلًا حتى اكتمل، البعض قال: خمس سنواتٍ. والبعض الآخر قال: سبع سنواتٍ. لكن الجميع يتفق على أنه حين انتقل إلى هذه الدار، كانت النخلة التي زرعها قبل أن يشرع في البناء بقليل وجعلها مركز البيت، كانت قد أتتْ أكلها، وأسقطت بلحًا، لم تر القرية مثله، إذ يقال أن نواتها -كما روّج هو- قد أخذها من جنوب السودان عند منابع النيل تحديدًا.

بجوار باب البيت الخارجي فتح مدخلًا مستقلًا، الداخل منه لا يدخل إلى البيت، بل إلى قاعة مُعدَّةٍ للضُّيوف، صالةٌ واسعةٌ، ملحقٌ بها حجرتان وعلى طرْفها الآخر يقوم كنيفٌ، وحجرةٌ صغيرةٌ، تُستخدم في إعداد القهوة للضُّيوف، بينهما بابٌ صغيرٌ يأخذ إلى داخل البيت، حيث يأتي الطعام والشراب من الداخل. في أزمنة تالية، أغلق المدخل المستقل، ووسع الباب الصغير، وصار المكان دار إقامة للجدة فاطمة الأولى، ومنه ورثته فاطمة

الثانية حيث تزوجت فيه وأنجبت أطفالها الذين غادروها تباعًا، وخلى البيت إلَّا منها، ومن دواجنها ونعجتها والخروف التي تحتلُّ الآن –حجرتي الضيوف– وهي تستخدم حجرة القهوة السابقة لنومها، وذلك لقربها من الكنيف، وتبقى الصالة جيدة السقف والحوائط والتهوية، تقضي فيها أغلب نهاراتها.

في الوقت الذي تمَّ الانتهاء فيه من واجهة المنزل، كانت حكاية عيد وتعلمه الرسم والنقش على الحوائط من سيدنا الخضر بادية في الانتشار، لكنها لم تختبر، اختبارًا جديًا، إذ لم يقم عيد بنقش أيٍ من الحوائط حتى الآن، في نفس الوقت أطلق الشيخ حسن التُّربي سخريته القاسية من عيد، الذي يطلق عليه حتة العيل، لكونه صغيرًا، قال: لم يبق أمام سيدنا الخضر إلا العيال، والله زمن أغبر الذي يتطاول فيه حتة عيل على سيدنا الخضر وعليَّ.

وصلت الحكاية إلى آذان الجد الأكبر، أتى بعيد، وقال له: هذه هي الواجهة أريد أن أرى ما تعلمته يدك من اليد المباركة، تركه واقفًا أمام الحوائط يتأملها برهبةٍ وخوفٍ من الفشل الذي قد يصيبه، فيدمِّر حياته كلها، ليت أمي لم تُخبر أحدًا، هذا ما ردده داخله، فبعد الذي حدث بينه وبين الرَّجل الطيب عند ضفة النهر جرى عائدًا، مُرتَعدًا، إلي أُمِّهِ التي دثَّرتْهُ، ومن خلال ارتجافه علمت بما جري له، قالت له: إنه سيدنا الخضر. وبدأت الحكاية تأخذ طريقها إلي الألسن والانتشار.

أفاق عيد على الجَدِّ الأكبر واقفًا بجواره وهو يشير إلي براميل الجير والألوان: هيا يا بطل، أرنا قدرة الألوان على التألق فوق هذه الحوائط.

سأل عيد: كل الحوائط! أجابه الجدُّ الأكبر: كل الحوائط، حتى الخلفيات وداخل الغرف.

يقول بعض الناس، أن العمل استمرَّ سنواتٍ، وفي هذه الأثناء، ولبعد البيت عن القرية، ولاحتياج عيد إلى الوقت، بنى عشةً صغيرةً جوار البيت الكبير، ولما احتاج إلى الزواج بنى البيت الذي يسكن فيه الآن.

تحيَّر عيد: من أين أبدأ؟ وقف طويلًا، كان عُمَّال الطِّلاء يرشُّون الجير علي الحوائط، وهو يأكله التوتر، لا يعرف من أين يبدأ، ولا كيف، ويقف في الخلاء المقابل لواجهة المنزل عاقدًا يديه خلف ظهره، يروح ويأتي دونَ الوصول إلى قرارٍ؛ فأمه بقصِّها حكايته فوق النهر لم تجعل له فرصةً للتعلُّم على يد أحد، عليه أن يبدأ بنفسه، مجازفًا، ليكتسب اسمه ثقل الحكاية التي وراءه، حاول كثيرًا في الليالي الأولى أن يمرِّن يده ويدربها فوق ألواح الإردواز إلا إنها كانت تفشل فشلًا ذريعًا.

كان يقف أمام الحائط مُلجَّمًا، مرتبكًا، فحياته كلها واقعةٌ رهن الاختبار. لَّما طال تردده ووقوفه أمام الحائط، ناداه الجدُّ الأكبر وأجلسه بجواره تحت النَّخلة في سرَّةِ البيت.

قال: الخوف ضروريٌ لإنجاح أي عمل، ولكن التردد قاتل.

سكت الجَدُّ، وعيد لم يجد بداخله ردًّا يقوله، فأكمل الجد: ابدأ غدًا وسأتقبَّل النتائج.

كانت الليلة قمَرِيَّةٌ حين حمَلَ عيد دلاء الألوان، وفرشاته التي صنعها من قلب جريدةٍ أخذها من نخلة البيت، اعتلى السقَّالة المواجهة للباب، قال: بالليل أفضل من عيون المتنطِّعين التي ترصدني طوال النهار. وبدأ بالكتابة: بسم الله الرحمن الرحيم. ورسم حولها أهلَّةً ونجومًا.

لم يندهش حين وجد يده تجري بالكتابة والألوان فوق صفحة الحائط، كان يقول: عند الصباح لما يرى الجَدُّ والناس ما فعلتْ يدي سأكون قد اجتزْتُ الاختبار.

ظل مُعَلّقًا فوق السقَّالة حتى الفجر؛ موعد قيام البنَّاءين لاستئناف أعمالهم، نزل من السقَّالة، وراح إلى بيتهم ونام، ولم يعُدْ إلا بعد العصر. كانت الحائط قد تشربت الألوان، والشمس جففتها، والناس واقفين للفرجة على ما أبدعت يده، بينهم الشيخ التربي، الذي لم يعلِّق، وتسلل مبتعدًا باتجاه المقابر.

كان ما خطَّتْهُ يده بعد الكتابة، اسم الجدِّ الأكبر على الواجهة، تحيط به أسماء الأربعة الأقطاب، وفي أحد الجوانب رسم نخلةً أصلها ثابتٌ، ورأسها تقارب السماء، وحولَها طيورٌ، وفي ركنٍ آخرَ خطَّط رسمًا لجملٍ يقوده رجلٌ تَتْبعهُ مجموعةٌ هائلةٌ من الإبلِ.

وجد الدَّهْشَةَ والإعجاب تطلَّ من أعيُنِ الناس، تدلُّ عليها كلماتهم وهمهماتهم، ووصل إلى سمعه صوت الجدِّ وهو يضع يده فوق كتفه: أبدًا لم أُراهن على الجواد الخاسر. وعيد الذي حرَّكهُ الكلام قال: ولكن كيف تعرف؟ ابتسم الجدُّ الأكبر ابتسامةً صافيةً، ورفع يده مسَّدَ بها لحيَتَه التي يخالطها بياضٌ واضحٌ، وهو ينظرُ له نظرةً عميقةَ الغورِ، دون أن يُعَلِّق، وسارا باتِّجاهِ البيتِ.

استفاقت من غفوة الضحى على نقرات خفيفة فوق الباب يتابعها زياط العيال وربابة يجر وترها بمعلمة رائعة، قادرة على النطق دون غناء، قالت: عوض الله.

اعتدلت فوق السرير وهي تكمل: ما زالوا يصرون علي تذكيري!

التقطتْ العُكَّاز وهشَّتْ بغضبٍ خفيفٍ دواجنها المتكأكئةَ حول السَّريرِ، وخطَت باتجاه الباب.

كان عوض الله؛ المغنِّي الشَّعْبي الجوَّال، قد نزلَ من فوق حمارته وراح يقيِّدُ أرجلها، وقف معتدلًا هاشًّا لوجوه الأطفال الذين يتابعونه منذ لحظةِ دخوله إلي البلد، من شارعٍ إلي شارعٍ، ومن حارةٍ إلي زقاقٍ، دائمًا خلفه، يتسمعون لكلماته وأنغام ربابته، وقد يفوزون في بعض الأوقات بِقَدرٍ من الحلوى أو البلح التي يقدمها أصحاب البيوتِ إلى عوضَ الله الذي يقفُ يغنِّي ممتدحًا أهل الدار، ذاكرًا مآثرهم القديمة التي تناقلت إليه من أفواه أسلافه المغنِّين الذين جابوا الدُّروب قبله.

كانت له محطاتٌ أساسيةٌ يتوقف فيها ليأكل لقمةً، أو يطعم الدابَّة التي تشاركه جولاته في القرى والنُّجوع، أو ليشرب شايًا أو حجرًا من المعسِّل، حتى هذه المحطات وَرِثَ التوقُّف فيها من أسلافه، كان أهل المحطَّات تلكَ يُرَحِّبون به ويقدمون المطلوب منهم، دون سؤالٍ منه ودون لحاجةٍ منهم، وكأنهم جميعًا ينفِّذون بنود عهدٍ غير مكتوبٍ ولكنه محفوظٌ في الصُّدور، يتناقله الصغير من الكبير وهذا بدوره يوَرِّثه لأطفاله وأهل بيته.

أحد هذه المحطَّات الرئيسية، هو بيت السيِّدة، يتوقَّفُ عوض الله ليشرب شايًا وأحيانًا يضاف إليه حجر من المعسِّل، على أن يعودَ بعد صلاةِ العشاءِ، ليتعشَّى، يتسلْطَن، حتى يبدأ توافد الرجال والشباب من أهل القرية، يلتفُّون حوله، وهو العارفُ بهم، يجرُّ قوس ربابته فوق الوتر بادئًا بالصلاة على النبي، معرِّجًا بمديح خاصٍ لأهل البيت ذاكرًا أسمائهم، ثم يتوقَّف، ويهرش قليلًا في رأسه كأنما يبحث عن النغمة الجديدة الصحيحة لهذه الليلة، حين يُنزِّل يده من رأسه، تكون عمامته قد تهدَّلت، أصابعه فوق سبيب الرَّبابة ليلتقطَ النَّغمة الأساسية التي يريدها، سرعان ما يجدها، ويأخذه الوجْدُ إلى حضرته، كما درويشٌ في قلبِ أوْرَادِه، عيونه مغلقةٌ، جسده وحواسه، وربابته وصوته، تصيرُ كلها كيانًا واحدًا، وحده الغناء يتصاعدُ منه، يتفجَّر من طاقةٍ، تشعُّ النُّور ولا يمكن الوصول إلي منابعه.

الرجال حوله يُهَلِّلون، يستزيدونه، يطلبون أغانٍ ومواقفَ يسمُّونها، وهو يُلبِّي، يُعَرِّج من حكايةٍ إلى أخري، من أغنيةٍ إلى موقفٍ، إلى حكمةٍ، إلى تطريبٍ يأخذ بالألباب، يتوقفُ قليلًا ليلتقط أنفاسه، يفتح عيونه المغمضة كأنما يعود من أماكن بعيدةٍ، أماكن الحكايات والأغنيات، يبربشُ برموشهِ حتى يستطيع أن يرى خلال أضواء الكلوب الذي ينيرُ السَّاحة الداخليَّة للبيت، والمعلَّقُ بجِذْع النَّخلة.

خلف الرجال، في البعيد قليلًا، يرى أطياف النساء بملابسهنَّ السوداء، ملتفَّاتٌ بينهنَّ السيدة صاحبة البيت، يغمضُ عينيه قبل أن يلحظه الرِّجال،

الذين يقبلون على تحيته بالسجائر والنُّقود، ولا مانع من قطع الكيف؛ الحشيش أو الأفيون. أثناء توقُّفه القصير، وهو يتلقى كل هذا ببسمة رضا غامرةً تجتاح روحه، وتهبه القوَّة كي يستكمل ليلته التي لا ينهيها إلا أذان الفجر المنبعث من الجامع القريب.

الآن وهو يضع رأس حمارته العجوز في قلب المخلاة الملأى بالغلَّة وقطع الخبز الناشف، يتحسَّرُ على ذهاب هذا الزمن.

- أهلًا يا عوض الله.

انتبه على وقوف السيدة علي عتبة الباب ويدها تستندُ على الحائط، وكأنما قلبه حدثه بشيءٍ غامضٍ حين رأى وجه السيدة وسمع نبرة صوتها، أجاب بترددٍ ويده التي فرغت من إحكام ربط المخلاة على رأس الدابة ظلت مفرودة في الهواء، تحاول القبض علي شئ لا تعرف كنهه: أهلًا بالعمة أخت الرجال، كل عام وأنتِ بخير.

وهي التي رأت نظرته، وتعلق عينيه بوجهها، استدارت عائدةً إلي البيت قائلةً: سأعدُّ لك الإفطار والشاي.

رد قبل أن تبتعد: الحمد لله، فطرت.

لوَّحت بيدها وتمتمت بكلماتٍ، لم يتبينها، وإن فهم وقعها، استدار ليواجه الأطفال الذين أصابهم الصمت منذ لحظة ظهور السيدة فوق عتبة الباب، لم يستطع أن يبتسم لهم، أخذ ربابته في حضنه، وجلس مقرفصًا في

ظلِّ الحائط، ودون كلمةٍ أيضًا أشعل سيجارةً وراح يمتصُّ دخانها ويطلقه في زفراتٍ قويةٍ، كان توتره واضحًا؛ عينه التي حاول الأطفال استطلاعها، كانت تنظر لداخل البيت، حيث النخلة التي يمرجح الهواء جريدها، استنكر الأطفال فعله، فجروا إلى الساحة أمام البيت، ونظموا أنفسهم في واحدةٍ من ألعابهم الكثيرة.

الضغينة -وليس الكره- هي ما كانت تمتلكه ضد عوض الله، تفكر الآن في ضغينتها نحوه، وهي تشعل الموقد لتعد له ولها القهوة التي اعتاد أن يحتسيها كلما جاءت به الطريق إلى بيتها، كانت تقول -وما تزال تؤمن- بأن لكل ابن آدم دفَّةً في رأسه يديرها بكيفهِ، وقدرته، وفهمهِ لمصالحهِ واحتياجاته، لكنها في نفس الوقت تؤكد على أننا في لحظاتٍ كثيرةٍ نكون غافلين عن أشياء بداخلنا أو حولنا، ويأتي آخرون ليكشفوا عنها أو يساعدونا على رؤيتها، يتمُّ هذا -في أحيانٍ كثيرةٍ- دون قصدٍ منهم.

في هذه النقطة تحديدًا يقبع عوض الله، الذي تتهمه في سريرتها بأنه السبب وراء فقدانها لابنها البِكْرِيِّ؛ سعيد، والذي تعلّق بسخريةٍ مريرةٍ عليه: بأنه لم يأخذ من الدنيا غير اسمه.

كان طفلها البكري الصغير، ولوعًا بالشَّاعر، ما إن يعلم بقدومه إلى القرية، حتى يظلَّ في إثره طوال النهار، لا يعود إلى البيت إلا عندما يأتي الشاعر بعد صلاة العشاء، ويظل مرابضًا بجواره إلى أن يصمت عند أذان الفجر، حين يستيقظ في الصَّباح يسأل عن الشَّاعر، ولما يعلم برحيله، يأخذه الحزن إلى الهمود، فيظل مرابضًا بالبيت لعدة أيام، بعدها ينطلق في الشوارع مقلدًا للشاعر مردِّدًا أغانيه، حاولت وأبوه ردعه كثيرًا، لكن جموحه أبدًا لم يرتدع.

لما كبر أخذه التعليم قليلًا، لكنه مارس اختفاءاته المتعددة، يعود بعدها، منهكًا، مهدودًا، لتأخذه الحروب والسياسة والتغرّب في بلاد الله الواسعة،

دائمًا يمارس هوايته في التخفي، في كل مرة كانت تعتقد بأنها آخر مرةٍ تراه، لكنه يعاود الظهور مرةً أخرى. في البداية حين كان صغيرًا كان وجود إخوته الصغار يلهيها قليلًا، ويضعف قلقها نحوه بالقدر الذي تنغمس فيه بالاهتمام بشئون أطفالها، حتى كبروا، وفارقوها، واحدٌ إثر واحدٍ، في كل مرة يظهر ليؤكد لها مقولته الدائمة والثابتة:

- إرثنا يا أمي، التشتُّت، إرثنا الأخلاقي يا أمي.

لم تفهم كثيرًا كلماته، في مراتٍ كثيرةٍ حاول أن يوضِّح لها، يشرح غموض ما يقول، ليأخذها إلى التباساتٍ أشد، فتلجأ إلى علاجاتها الشعبية التي توارثتها، وخبراتها المستمدة من جدتها، لكنها تبوء كلها بالفشل، كان يوافقها -أحيانًا كثيرةً- على الخضوع إلى علاجها، كي لا يجرحها، وكان يقابلها بالرفض في الأوقات الأخرى، كانت تخبر النساء حين يلتففن حولها: ليس الخطأ في العلاج أو طريقتها في التطبيب؛ لكن لعدم قناعته.

أبدًا لم تكره عوض الله، ولم تقفل باب البيت في وجهه، فهي تنفِّذ بنود الاتفاق غير المعلن الذي حرص أهل البيتِ عليه منذ إقامة هذا البناء، لكن خشيتها من قُدْرته على الفهم وأفكاره ونظرته للحياة التي يبثُّها في غِنائه، خاصَّةً في مواويله وتعلق ابنها بها، لدرجة جعلته يحفظ أغلبها، ويرددها كثيرًا، مستشهدًا بها في مواقف كثيرةً من حياته، أو تسمعها منهُ حين يستلقي فوق سريره بالليل، فيصيبه أرقٌ، ينغِّمها مرددًا بصوت خفيض، في اللحظة تحس بالألم الذي يعتصره، تنزل من سريرها، وتذهب إليه، لكن همهمته

تصمت، ويتصنع النوم، كل هذا هو ما حرك ضغينتها نحو عوض الله في تلك الليالي البعيدة، الثقيلة الوطء على قلبها وروحها.

تنبهَّت السيدة على رائحة القهوة التي نضجت فوق موقدها، فأنزلتها، وصبَّتها في كوبين ثم أطفأت الموقد، ورفعت كوبي القهوة إلى سريرها، ثم وقفت متحاملةً على عُكَّازها، تناولت القهوة ومشتْ بها تجاه الباب، حيث يجلس عوض الله مقرفصًا في انتظارها، وهي تردِّدُ في سرِّها: الله يرحمك يا سعيد.

حين جلست بجواره في ظلِّ الحائط، كان الأطفال قد غيَّروا لعبهم للمرَّة الثالثة، قال عوض الله بعد أن تناول القهوة منها: دائمًا عامر. أجابت بتحفُّزٍ واضح، وسخريةٍ مريرةٍ: إذا جاء من يعمِّرُه.

التقط خيط المرارة من صوتها، وتوجَّس قلقًا جعله يقبض على بقيَّة الكلام المعتاد الذي يتردد في مثل هذه الأحوال، فأراد أن يعبر هذه المنطقة بسلام، كي لا يخونه التعبير، لحظتها سيكون العداء واضحًا وظاهرًا -إن هو أخطأ- ولن يستطيع لحظتها أن يجابهها، فقوة السيدة من الشهرة التي تجعله يفكر جيدًا قبل أن يقف أمامها متحديًا، وأيضًا هو لا يريد إنهاء تواجده بالقرية بصورة تقلل من قَدْره واحترامه لذاته.

حقيقةً هو يدرك طبيعة شعورها نحوه، أبدًا لم ترحِّب بحرارةٍ عاليةٍ به، وأيضا لم تردَّ الباب في وجهه، حاول كثيرًا أن يفهم، أن يصل إلى منطقةٍ تريحه في التعامل معها وفي نفس الوقت تريحها، في أحيانٍ كثيرةٍ يخطئ، يميل يمينًا، أو يسارًا قليلًا، ليجد أسوار العداء ترده، تردعه، حين اشتكى لسعيد -ابنها الراحل- قال له: لا تهتم. لكن الهمَّ لم يفارقه، ظل هاجسًا يسيطر عليه، فما يوجه حمارته في الطريق باتجاه البلدة، حتى يجد القلق ينطلق من داخله، كان يقول في دخيلته: كأنما القلق هو الذي يقودني.

أراحه كثيرًا تفسير عيد -الرسام- حين حكا له: ألم يكن سعيد وهو بعد طفل، يدور خلفك، أينما ذهبت، هو خلفكَ دائمًا؟ خوفها الدائم من تحوُّلُ ابنها البِكرِيَّ إلى مغني شعبي جوال، كان ينغص عليها أمانها.

– لكنه لم يصبح.. يرد محتجًا. فيقاطعه عيد: قلب الأم، أين تضعه؟ ثم إنهُ لما كبر، أخذه السفر والترحال، مثلك أيضا، ألا تجاهر دائمًا بحبِّ السفر والمغامرة، وتغني لهما، ألست تقول: حياتنا ضيقةٌ، والتنقل يوسعها.

ظلَّا صامتين، يرتشفان القهوة علي مهل، وإن كانت مساحةٌ من القلق مفروشةً بينهما، قال محاولًا قطع المساحة: يا عمة..

ولما لم ترد عليه، ولم تلتفت ناحيته، تنحنح ليتأكد من وضوح صوته ثم قال: هل ذنبي أني أغنِّي؟

فهمت بسرعةٍ تلميحه، فأجابت: لا يا ولدي، ليس الغناءُ ذنبًا، ولكن ما يفعله الغناء، خاصة حين يقترب من أرواحنا.

انفرجت أساريره قليلًا، فرددَ داخله: بدايةً طيبةً على الأقلّ. وقال محاولًا اللحاق بها قبلَ أن تهرب اللحظة: الغناء، يا عمة، يهب الروح الطَّاقة للانطلاق، من أسر حياتنا الضيِّقة.

أراد بجملته أن يجرَّها بعيدًا عن مجازها الخاص –لأرواحنا– بأن يأخذ الكلمة بإطلاقها العام، دون تخصيصها، الذي تعني بها أطفالها، وهي لم تشأ أن تجادله، تدرك بداخلها، توجُّسه الدائم وشكوته منها، لكنها أيضًا تعلمُ تعلُّقه بالبيت وأهله، خاصةً إخوتها الرجال وابنها البكريِّ الذين دائمًا يكرمون وِفَادته، قالتْ: منذ زمنٍ بعيد وأنت تغني يا عوض الله. ردَّ دون أن

يكون متيقظًا: نعم زمنٌ طويلٌ، لكنه قاسٍ، خاصةً حين حرمت من الليالي الدافئة هنا بالبيت. وأشار إلى النخلةِ.

قالت بسرعةٍ: منذ خلا من الرجال.

لتوه انتبه إلى الشَّرَك الذي وضع قدمه فيه، بلفظةٍ واحدةِ، تستطيع الآن أن تطبق عليه، لذا آثر الصمت، وأرسلَ عينيه ليتابع جريَ الأطفال بالسَّاحة ولعبهم الذي بدلوه أكثر من مرةٍ.

- لماذا كبحت المُهْرةِ أثناء تسابقك مع مصطفى؟

كانت شمس الضُّحى قد ارتفعت، وسخنت، وانحسر ظل الحائط حولهما، وبدأت الحرارة تلسع الأبدان، كان واضحًا أن ظهيرةً شديدة الحرارة تمهِّد لقدومها.

السؤال كان مباغتًا لها، فهي أبدًا لم تتوقع أن تسمعه من أحدٍ، خاصةً عوض الله، أخفت رجفة يدها بأن أنزلت كوب القهوة، ورمقت عوض الله بطرف عينها، ياه، لأول مرة ترى جيدًا هيكله الضئيل والعجوز، بدا لعينها وهو قابع بجوارها محتضنًا ربابته ومدخنًا سيجارته مستكينًا تمامًا، وكأنما السؤال الذي ألقاه منذ لحظةٍ لم يقصده، أو حتى يهتم بأن تجيب عليه.

تساءلت في داخلها، أين كان وقتها؟ هل حضر السباق؟ أم سمع عنه؟

- رأيتك تجذبين اللجام.

ما يزال يصر على قسوته، هكذا تهكَّمت داخلها، أرادت أن تطلق لسانها، لكن الأصوات هاجمتها من جديد، تلفتت في محاولة جادَّةٍ لكتمها، ورن الصوت بأذنيها: أريد المُهْرة الآن! تمتمت بكلماتٍ غير واضحةِ المخارج، كأنها تردُّ على الأصوات التي تعصف بها بشدةٍ.

رأى تقلقلها بجواره وحركة أعضائها المضطربة وقبضتها على العُكَّاز تأخذ في التصلُّب، وأحسَّ على نحوٍ غامضٍ أنها ربما تفكر بأن تضربه، تسأل هل هذا بسبب كرهها القديم له أم بسبب السؤال الذي ألقاه منذ قليل؟!

تنحنح معتذرًا، قال: لم أقصد أي جرح؟!

كانت الأصوات تزداد ضراوتها، كأنما الريح التي تلاعب النخلة هي التي تحركها، تهيجها، قالت علي نحو غامض: أهي -تقصد الأصوات- التي دفعت الجميع للرحيل؟ لم يفهم، بالتأكيد لم يفهم، لكن كلمة الرحيل كانت كفيلةً بجعله ينهض، شاكرًا إياها على القهوة، ليخرج من عتبة الباب ومنها إلى حمارته التي تجرش في عليقها بهدوء.

لم تنتبه إلى خروجه، كان همها منصبًا على التحكم بارتجافاتها وأعصابها قدرَ الإمكان في مواجهة هذه الأصوات، التي كسرت كل القواعد التي كانت السيدة تحاول تثبيتها.

انتبه العيال إلى خروج عوض الله من جوار السيدة، توقفوا عن لعبهم وزياطهم، راقبوه وهو يُعدِّل من وضع عمامته فوق رأسه، ويعيد لفَّها بإحكامٍ شديدٍ، مصُّهُ للسيجارة بقوةٍ، ثم رميها ودهسها على الأرض بعنفٍ، مشيته المنفعلة، سحبه لحمارته خلفه دون أن يعزف على ربابته، وهذا ما أثار استغراب العيال فتبعوه -لأول مرةٍ- صامتين.

قالت: يا عوض الله. ولما لم يأتها ردٌّ، وصوت لعب العيال قد اختفى، والأصوات من حولها تراجعت، انتبهت إلى أنها تجلس وحيدةً في شمس الظهيرة، والعرق يكسو بدنها، فتبسمت وهي تقول: الله يخيبك.

قامت واقفةً وتحركَّت حتى خرجت من الباب، لا أثر لشيءٍ، كل شيءٍ صامتٌ، ساكنٌ، شكّت بما جرى، لكن نظرةً من عينيها إلى كوبَيْ القهوة، جعلها تتيقَّنُ من مرور وقتٍ طويلٍ عليها وهي جالسةٌ في الشَّمس دون أن تشعر بسخونتها التي تحسُّها الآن فوق وجهها، قالت: شمس هذه الأيام تلسعُ. ثم نادت بعزم صوتها على عزيزة.

وقفت لدقائق، دون أن يأتيها جوابٌ، رأت الدُّخان يتصاعد فوق بيت عيد، قالت: هي الآن أمام الفُرْن تخبز، لكن الولد عيد، قلبي يأكلني عليه. رجعت عائدةً إلي البيت، كانت دواجنها هاجعةٌ في الظل، ترقد في انتظارها.

مقتطفٌ مِنْ سيرةِ السَّيِّدَةِ

حين جاءتْ للدُّنيا، كان قد سبقها ستةٌ من الذكور؛ إخوتها الرجال، الذين سوف تتربَّى بين سواعدهم وسطْوَتهم، متاحة لها كل الفَرصِ والمتعِ والجموح للعائلة المحرومة من وجود إناثٍ بها، فسوي الجدَّةِ والأمِّ، لم يكن هناك إناثٌ أخريات، الكلُّ يلهو بها، يعتبرها؛ كما قال الأب ذات مرةٍ: تميمة الحظ التي جاءت متأخرة.

في ذلك الوقت، كانت العائلة تعيش طورها الثالث، والذي سيشهد الانهيار العظيم والختامي لعائلة عبد الله الرحَّال، المؤسِّس الأول، فبينما كان الأب الأول رجلًا موسوسًا، مضروبًا بحب البناء، استطاع أن يضع خططًا واضحةً ومحددةً للصعود في سُلَّم التجارة والسلطة، فبدأ بعددٍ من التزاوجات الواسعة لإنجاب الرجال الذين يستطيع الاعتماد عليهم من صلبه، في نفس الوقت بدأ في بناء هذا البيت؛ القلعة إن أردنا الدقة، في نفس الوقت تدعيم صِلاته بأرباب السُّلطة والسُّلطان.

في ذلك الوقت كانت تجارة العبيد، رائجةً، وتدرُّ أرباحًا طائلةً، فاستطاع خلال أيامه الأخيرة أن يري نجاح إمبراطوريته وقوَّتها التي تتعاظمُ يومًا بعد يومٍ، ومن المؤكَّد أن الإمبراطورية تعرَّضتْ لعددٍ من الضَّربات المؤلمة، لكنه استطاع في كل مرةٍ أن يردَّ بعنفٍ وحكمةٍ، جعلتْه وإمبراطوريته مرهوب الجانب، لكن ظلَّت المشكلة الأساسية والتي باتت تؤرِّقه كثيرًا، وكان يرى أنها أحد العوامل الأساسيِّة التي ستعملُ على تقويضِ إمبراطوريته؛ هو قلَّة الإناث داخل عائلته.

فبينما لم يُولِ اهتمامًا يُذكرَ لذلك في زيجاته المتعددة إلا أنه بدأ يحس بالخطر حين رأى ذريته من أولاده لا تنجب إناثًا، فما يؤكد نظريته ويكملها أن يضمن الولاء الكامل للعائلة، أي أن تكون العائلة مغلقةٌ على ذاتها، تتزاوج من بناتها، ليس من إناثٍ من خارج صلبه، لأن ذلك -برأيه- سيكون سببًا لتدخُّل العائلات الأخرى وتسرُّبها إلى عائلته والعمل على هدمها من الداخل.

ظلت مشكلة نقاء عائلته تؤرِّقه، ولم يجد لها حلًّا، إلى أن رحل مخلِّفًا وراءه مجموعةً من الذُّكور وكثيرًا من الوصايا التي تمَّ التنكُّر لها وغدرها بعد زمن قليل.

خلال الأعوام التالية لوفاته، بدأ تحريم تجارة العبيد، وملاحقة التُّجَّار، وإغلاق النقط والزرائب ومركز تجميع العبيد، كل هذا أدَّى بالتحوُّل الثاني داخل عائلة الرحَّال حيث تم التحوُّل إلى تجارة الحبوبِ والبُهارات والجُلود والجمال، والقادمة أيضًا عبر نفس الطريق، من السودان، عبر دَرْبِ الأربعين، إلى مسالك الصحراء المُعقَّدة ثم إلى بيت الرحال، قلعة الرَّحَّال، لكن قبل ذلك علينا أن نوضح أن نصف العائلة قد تمَّ تشريده وتشتيته في البلاد، فالبعضُ بقي في السودان، فرارًا من مطاردات الحكومة، والبعض الآخر هاجر إلى الشمال، وفي الحالين انقطعت بعد فترةٍ أواصر الاتصال.

جاء الطَّوْر الثالث، والانقطاع التام لهذه التجارة، عندما أعلن المهدي عن ثورته، وقيام دولة الدراويش، وأُعلِنَت الحروب بين البلدين، وقُطِعت

الطرق، ونهبت القوافل، لصالح الدراويش مرَّةً، ولصالح جيش كتشنر الذَّاهب إلى السودان كي يعيده إلى سيطرة التَّاجين: البريطاني والمصري.

إذن ولدت فاطمة الثانية في ظلِّ تمتُّع العائلة بسمعتها فقط، بأنها واحدةٌ من أكبر العائلات، وإن كان الطور الثاني والثالث لم تتواجد فيه الإناث بالصورة المُرضية، مما جعل أحد أجدادها يعلق ساخرًا، بأن العائلة كلها: لقيطةٌ. فكل واحدٍ من أبنائها ينتمي إلى أمٍّ مختلفةٍ، مما ساعد على ازدياد مُعدَّل التفرُّق والتشرُّد خلال هذين الطَّوْرَيْنِ، لذا عندما جاءت فاطمة إلى الدنيا، لم يكن موجودًا من العائلة المترامية الأسماء بالقرية سوى: أبوها وعمها الذي جرَّتْهُ إحدى الإناثِ إلي خارج حظيرة المنزل الذي بناه الجدُّ الأوَّل: عبد الله الرحال.

كانت العائلة تعيش على مجدها القديم، وتحرص على إبرازه، وتمارسُ في نفس الوقت تجارةً محدودةً، تؤمن لها قدرًا من الكرامة وسط العائلات المتنافسة، ولما كانت الخيل هي إحدى وسائل المنافسة، ومعقودٌ بنواصيها الخير، كان من الطبيعيِّ أن تمتلك العائلة عددًا منها، تجري بها في السباقات التي تُقام في المواسم كـ: عاشوراء، والعيدين، والنصف من شعبان، والسابع والعشرين من رجب، والمولد النبوي.

كانت أسهم العائلة تتعرَّضُ للصُّعود والهبوط مع فَوْزِ وخسارة خيلها أثناء هذه المنافسات، لذا حرصت العائلة على أن يتفوق أبناؤها في ركوب الخيل، ولما رأت فاطمة الثانية الخيل في بيتها، رغبت في ركوبها والجري بها،

وبإيعازٍ من فاطمة الأولي –جدَّتها- بدأ إخوتها الرجال، في تعليمها كيفية ركوب المُهْرَةِ، ظنًّا منهم، إن هي إلا واحدةٌ من رغائب آخر العنقود، الأنثى الوحيدة، داخل حقل الذكور الذي يعجُّ بهم.

بعد زمنٍ قليلٍ، أصبحت فاطمة الثانية، فارسةً، تستطيع كسب أيَّ سباقٍ تدخله، بدأت أولًا مع إخوتها الرجال، الذين كانوا يسمحون لها –في سباق التدرب- بأن تتقدم عليهم، حتى يشتد عودها وتكتسب فرحة الفوز والنصر التي تدفعها للإجادة في كل مرة.

كانت فاطمة الأولي –جدتها- هي من اختارت لها المُهرةَ التي تركبها، ولا يركبها أحدٌ غيرها، في نفس الوقت كانت تتقدَّم في سنِّ الصِّبا، لتصبح مُهرةً، تركب مهرة.

في الوقت الذي كان اللعب والمرح هو ما يجرُّها ناحية السباق، كان لدي إخوتها الرجال، هدفٌ آخر من دفعها إلى حلبة السباق، فمن وجهة نظرهم –الذكورية- إذا كان بعض العارِ يلحق بالعائلة –أيّ عائلةٍ- عند خسارة خيلها في السباق، فما بالك لو كان الفارس امرأة، أنثي، كان العار أشدّ وأقسى، بينما هم يجنون أكاليل الغار، نتيجةً لفوز أختهم الصغيرة، العيّلة برأيهم.

بحسهم الدقيق، كانوا قد التقطوا منذ بداية تدريبها على التحكم بالمهرة تحتها، تعرف تمامًا متى ترخي اللجام، ومتى تجذبه، ومتى تدكُّ الركاب، أو

حتى الهمس في أذن المُهرة، كي تقطعَ ساحة السِّباق تحت صيحات الإعجاب والتهليل.

توجَّب على العائلات -الذُّكوريَّة الأخرى- أن تجد حلًّا للهزائم التي تلحقها على يدي -ذات الفرج- على حد تعبيرهم، وكانت المناقشات تدور هامسةً، وسرًّا ولا يمكن التصريح بها، كلها انتهت تقريبًا إلي نفس الطريق؛ إسكات هذا الفرج المتوثِّب فوق السرج، كان التهديد أحد الوسائل، لكنه ينسحب ويتراجع حين يرى قوَّة الرجال الستَّة إخوتها.

في واحدةٍ من خطب الجمعة، لَّمح الشيخُ إلى اقتراب يوم القيامة، فواحدةٌ من علاماتها قد ظهرت، وباتت واضحةً يراها كل ذي عينين، ويعيها كل لبيب، هكذا قال، فذوات الفروج قد اعتلين السروج! خلال جلساته التالية، ناقشه البعض، وحاول ردَّ ادعاءاته، لكنه -أي الإمام- كان قد قرر الجهاد في هذا الموضوع، ولن يتركه، حين لَّمح له البعض بالثأر بينه وبين فاطمة الثانية، حيث أنها قد دمرت ابن أخيه الراكب للمهر الذي يمتلكه الإمام، غضب واستشاط، وأزبد وأرعد -هكذا قالوا- أنه لن يترك الأمر أو يهلك دونه، غير أن زيارةً ليليةً من الرجال -إخوة فاطمة الثانية- جعلته يلمُّ نفسه وكلامه، ويحوِّل خطبة الجمعة التالية إلى مديحٍ في النساء اللواتي لديهنَّ القدرة على ركوب الخيول، ذاكرًا أمثلةً عديدةً للصحابيات الجليلات اللواتي شاركن الرسول (ص) في غزواته من فوق صَهَوات الجِياد.

الطريق الأخيرة والتي بقيت أمام العائلات، هو ما أوصى به الحكماء والعجائز منذ بداية الأزمة: سدّ الفرج. هكذا أشاروا، فعندما تكون في عصمة واحد من الرجال، خيرٌ وأهون من أن تبقى في حماية إخوتها.

بدأت عروض الزواج تنهال، وفي كل مرة كان الرد، لطيفًا، ذكيًا، يحاول تلاشي العداوة قدر الإمكان، إلى أن ضاق الإخوة، كل يومٍ خاطبٌ وراغبٌ بالزواج، وهم يرفضون، يعرفون بالحيلة الخبيثة التي ينطوي عليها طلب الزواج، وهم يريدون مد انتصاراتهم -عبر أختهم- إلى أطول زمنٍ ممكنٍ.

في واحدةٍ من نوبات الغضب، أطلق أحد الإخوة قسمًا، كان يراه كفيلًا بردع كل الراغبين في الزواج من أخته: أن أخته لن تتزوج إلا من يفوز عليها في السباق!

أذان الظهر المنبعث من الراديو الموضوع بجوارها فوق السرير، أيقظ حواسَّها، فتحت عينيها، على الصوت الضارع المبتهل، المنطلق في رحابِ الحرم الشريف، كأنما الصوت يأخذ أشواق ملايين الحجيج ويصعد بها معراجًا مباركًا، تحمله حمائم الحمى، تدور به، تطوف ترجعه نغمًا سماويًا عذبًا، يجعل الروح ترفرف تواقةً للهيام في الملكوت المفتوح على الأفق الواسع حولها، كانت السيدة تحس بنفسها خفيفة على وشك أن ترتفع في الفضاء، غمرها هذا الإحساس، فمدت يدها –تلقائيًا– وقبضت على حافة السرير، تبسمت لخوفها الغريزي، قالت: ما الذي أخشاه بعد هذا العمر؟ رويدًا تتابع همهمة الواقفين فوق عرفات، تردد خلف الصوت الدَّاعِي إلى الصلاة.

نبرة الخشوع المتصاعدة جعلت الدموع تطفرُ من عينيها المغمضتين وراحت تردد بهمس خفيف وراء الأصوات وهي تستشعرُ حالة من الصفاء، والنقاء، تغمرها، لترى نفسها هناك، وسط الملايين، بلباسها الأبيض، الذي يشبه الحليب، تقف فوق عرفاتٍ، ترفع يدها مبتهلةً وسط السكينة التي تغشاها، تتفرس وجوه الواقفين حولها. كانوا؛ جدتها فاطمة الأولي، والدها، والدتها، مصطفى، وجه ابنها البكري سعيد، كان وجهه حزينًا، مكدرًا، تقدمت نحوه، غير أن يدًا تقبض على كتفها، وتهزُّها برفقٍ، وصوتًا يقول: يا عمة.

فصلٌ في ذِكْرِ الراديو

تعلقها بالراديو، وجعله فوق سريرها، بجوارها، دائمًا تحت يدها، لم يأت مصادفةً، بل جاء للوحدة الطويلة التي تعيشها السيدة، لم يكن يؤنسها خلال سنواتها العديدة -الأخيرة- غير الصوت المنبعث من الراديو، لم تكن تغلقه أبدًا، اللهم إلَّا إذا ذهبت خارج البيت، وهذا نادرًا ما يحدث.

جاء الراديو إلى البيت في أوائل الأربعينيِّات قبل أن يضرب القدر ضربته داخل العائلة ويعمل على تفريقها، في ذلك الوقت كان الراديو يعد كأعجوبة من أعاجيب الدهر، خاصة بعد تحرُّك الحديد: القطار. وسباحته: السفن. وطيرانه: الطائرات. فليس من المستبعد بنطقه، وجعله قادرًا على التحدُّث بكل لسانٍ.

أتى بالراديو والدها، والذي أظهر في أواخر أيامه حسًّا عاليًا بالتصوُّف، جعله يحرص على حضور الموالد التي تقام للأقطاب والأئمة أينما كانت، كان يتتبعها، وفي واحدةٍ من المرات وهو عائدٌ من مولد سيدنا الحسين، جاء بالصندوق العجيب معه.

كان الراديو كبير الحجم، أبيض بمفاتيح عاجيةٍ كثيرةٍ وأسلاكٍ تخرج من أحشائه تتصل ببطاريةٍ، كانت مهمة السيدة -وقتها- تغيير ماء البطارية يومًا، حين انطلق الصوت منه لأول مرةٍ، فزعت جدتها وأمها، وحرصتا على عدم الاقتراب من صندوق الجنِّ كما أعلنت الجَدَّة، وإن كان إخوتها الرجال تعاملوا معه كشيءٍ طبيعيٍ داخل البيت، وقصوا حكاياتهم عن رؤيتهم للراديو لأول مرةٍ.

حين علمت القرية بموضوع الراديو، جاءت أولًا على استحياءٍ لاستطلاع الأمر، ثم توافدت أممٌ: رجالًا ونساءً، ليجلسوا للاستماع إليه.

الرجال كانوا يأتون في المساء، عقب صلاة العشاء يسهرون، يستمعون للقرآن الكريم والأغاني والتمثيليات والتعليق عليها، أمَّا النساء فكنَّ يأتين مع الضحى، بعد أن يفرغن من أعمال المنزل الصباحية، كان ما يشدُّهنَّ: ربَّات البيوت والأغاني والتمثيليات. خاصةً مسلسل الساعة الخامسة والربع عصرًا؛ والذي تعاد إذاعته في اليوم التالي قبل الظهر.

حين جاء عوض الله الحلبي؛ وكان شابًا في ذلك الوقت، إلى القرية، كما اعتاد، ودار دورته خلال النهار، فلما جنَّ عليه الليل ذهب إلى دار السيِّدة، وتعشَّى مع الرجال، وبعد العشاء بدأ توافد رجال وشباب القرية الذين رحبوا به بفتورٍ واضحٍ، ولحداثة سنِّه لم يجد تفسيرًا لهذا الفتور، فحرص على أن يبدأ مبكرًا، غير أنَّ الألسن أوقفت نغماته التي كان يمهد بها لدخوله في جو السلطنة ليعيدهم إلى حظيرته، فقد هداه تفكيره إلى أن مغنِّيًا آخر ربما يكون قد جاء إلى القرية في هذه الأيام السابقة، وأظهر من البراعة التي تستوجب منه -الآن- أن يبذل كل ما في وسعه للتغلُّب على هذا الغريم الذي لا يعرفه.

في لحظاتٍ كان غريمه أمامه، الراديو، ظل النَّاس وعوض الله صامتين إلى أن انتهى بثُّ الإذاعة، بعدها طلب الناس من عوض الله أن يبدأ.

كان إحساسه بالمهانة كبيرًا، فسلطانه ولقمة عيشهِ مهددان بالزوال بسبب هذا الصندوق، لكنه بدأ على أية حال، بعد أن استعلم عن هذا الشيء، وكم فردًا يمتلكه داخل القرية والقرى المجاورة! من لحظتها وزيارات عوض الله الحلبي الليلية بدأت في التباعد، فحرصًا منه على لقمة عيشه وكسب رزقه، كان عليه أن يجد أماكن أخرى -داخل القرية- يمارس فيها غناءه، بعيدًا عن الراديو.

كان تباعد الزيارات لعوض الله أحد الأسباب التي دفعت السيدة نحو الراديو وارتباطها به، لم تكن تنظر له كبديل لغناء وحكايات عوض الله التي يؤديها، لكن كمعين لها في إبعاده عن البيت، وهو ما كانت ترغب فيه لكن لا يمكن التصريح به لأحد، لا لإخوتها الرجال، ولا لزوجها مصطفى، فهي تعرف تمامًا القواعد التي تحتم عليها استقباله داخل البيت في الوقت الذي يظهر فيه.

لم تظهر رغبتها بإبعاد عوض الله عن البيت إلا حين أدركت تعلق طفلها البكري سعيد به، وحرصه على السهر بجواره طوال الليل مهما حاولت أن ترغبه في النوم، وهو الطفل كان سريع الحفظ للأشعار والحكايات التي يقصها الشاعر، أيضًا إجهاضها في وقت مبكر -بعيدًا عن أعين الرجال- حصول سعيد على ربابة صغيرة، خشيتها من أن يصير شاعرًا جوالًا، جالبًا لأهل البيت، إخوتها الرجال وزوجها، الفضيحة والجرسة التي لا يمكن ردها ولا تكذيبها.

كانت قد لاحظت اتفاقًا شبه سري بين سعيد وعوض الله حين قام الأول بسرقة بعض من الغلة والبلح والبيض من داخل البيت وأعطاها للثاني الذي عليه أن يحضر له في المرة المقبلة الربابة الصغيرة، ظل القلق يفترسها بعد أن عرفت بالأشياء التي اختفت من كرار البيت، واستطاعت أن تغطيها حتى لا تشعر جدتها وأمها بأن يدًا امتدت واختلستها، فهي تعتبر ما حدث أمرًا داخليًا يخصها هي، أول مواجهة حقيقية من الحياة التي بدأت تلاعبها، وأيضًا لكون سعيد طفلها الأول والوحيد حتى هذا الوقت، أوائل الأربعينات، كانت قد أنجبت طفلًا آخر، لكن الملاريا التي هاجمت قري الجنوب كلها استطاعت أن تضيفه إلى حساب الموتى، إذن بقي سعيد، ابن الرابعة وقتها، وبقيت هي بهواجسها ومراقبتها الدائمة له طوال الأسبوع الذي غابه عوض الله الحلبي ليعود ومعه الربابة الصغيرة.

رأت سعيد وعيد يتسحبان نحو الزرائب الخلفية ويد سعيد تقبض علي شيء –الربابة– داخل ملابسه، انتظرت حتى دخلا واطمأنا وأخرجا الربابة وجرّا القوس، فصدرت الأنغام، الصوت، العلامة التي كانت تنتظرها لتدخل خلفهما، انتفضا واقفين حين فتحت الباب، تقدمت نحوهما، دون كلمة مد سعيد يده بالربابة نحوها، فأخذتها وخرجت، وذهبت إلى نار الفرن التي كانت قد أعدتها مسبقًا وألقت بالربابة فيها.

ظل الراديو العتيق كبير الحجم، قائمًا، يؤدي عمله إلى أن أدركته الشيخوخة مع ظهور البطاريات الجافة، والتي عملت في نفس الوقت علي

انتشار الراديو داخل البيوت، حيث الحجم قد صغر ورخص السعر، جاء بالراديو الجديد مصطفى زوجها، في هذا الوقت كان والدها وجدتها وأمها قد غادروا الدنيا، وإخوتها الرجال أخذتهم الدنيا في دروبها الواسعة بعيدًا عن البيت.

كان يمرح في خلاء البيت الواسع أطفالها الأربعة والبنتان، الذين أنجبتهم طوال مدة الراديو العتيق، كان زوجها مصطفى هو الذي بدأ إدارة مؤشر الراديو إلى محطة القرآن الكريم عقب عودته من صلاة العشاء وتمدده فوق سريره لينام جاعلًا الراديو أسفل السرير، يظل الراديو دائرًا طوال الليل، في هذا الوقت كان لا يمكنها تحويل المؤشر، وخاصة بعد انتهاء البث عند منتصف الليل، فما أن تمتد يدها إلى الراديو، حتى يستيقظ مصطفى ويقول: دعيه كي يوقظني عند الفجر. حيث يعود البث لإذاعة صلاة الفجر من المسجد الحسيني.

لما رحل مصطفى، وكانت قد غيرت أنواعًا كثيرة من الراديوهات، من مختلف الماركات والأحجام، واعتادت على أن تنام على صوت القرآن الكريم، والبيت صار شبه خال إلا منها، ما إن ينتهي البث، حتى تصحو وتدير المؤشر بين المحطات العديدة، إلى أن تقبض على حلقة درامية هنا، أو أغنية تحب سماعها، كانت ترفع يدها عن مؤشر الراديو الذي صار يجاورها فوق السرير.

كان لاكتشاف البطاريات الجافة وانتشار الراديو سببًا أكبر في قلة تواجد عوض الله، ليس في بيت السيدة فقط، ولكن داخل القرية كلها، كان الزمن يتقدم، والضغائن يتم التعايش معها دون تقليب ومراجعة، فالزمن الذي يحاول فرض سطوته وإملاء شروطه لم يكن يسمح بمثل هذه المراجعات، بل كان يدفع كل ذات إلى التقوقع داخل نفسها، مستغلًا الخوف الذي يراكمه داخل النفوس.

الراديو الأخير الذي معها الآن، جاء من الأراضي الحجازية، كان قد أتى به أخوها عثمان، لما ذهب لأداء الفريضة، السيدة هي التي كانت أوصته بذلك، قالت له: متعدد الموجات أريده.

لم يكن في ذلك الوقت قد بقيَ معها أحد داخل البيت الكبير، سعيد قد رحل، وباقي أولادها قد ذهبوا في دروب حياتهم، وكانت الكهرباء قد دخلت إلى القرية، وتسارعت الأشياء، ظهور التلفزيون، والذي ذهبت لمشاهدته عند الولد عيد لما أتى به، مرة واحدة، لم تكررها، ولما كان عيد يلح عليها، كانت تشير إلى الراديو: يكفيني ابن زمني هذا.

كانت قد لحظت مع ظهور التلفزيون، بدء تناقص النساء اللواتي كن يحضرن إليها للثرثرة -بعد العشاء- هن وأطفالهن الذين يلعبون بالساحة أمام بيتها أو يلتفون حولها للاستماع للحكايات التي تقصها، هذا التناقص المتسارع أدى في الأيام المقبلة -مع ظهور الأطباق اللاقطة- إلى الاختفاء التام.

كانت في تلك الآونة الأخيرة قد أظهرت تعاطفًا جديدًا تجاه عوض الله الحلبي الذي باتت زياراته للقرية مقتصرة على أيام الأعياد والمواسم فقط، وخلال النهار. كان يأتي إليها ليشرب معها القهوة في هدوء قلما كان ينعم به في أوقات سابقة.

كانت قد ثبتت مؤشر الراديو على محطة القرآن والتي أصبحت تُبث طوال اليوم، لم تكن تدير المؤشر إلا في أوقات محددة نحو محطات بعينها، لكن في مثل هذا اليوم -وقفة عرفات- لا يمكنها أن تدير المؤشر ولو للحظة واحدة.

قالت بغضب: أين كنت؟

قال وهو يجلس بجوارها على حافة السرير: كانت في يدي شغلانة من الأمس، قررت الانتهاء منها بعد الفجر.

تنبهت إلى رائحة الجير والطلاء التي تفوح من ملابسه، لكنها أصرت: كان يمكنك السؤال؟!

بات واضحًا العداء الذي يبطنه العتاب في نبرة صوتها، فأراد أن يبعدها عن الضغينة، متنبهًا في ذات الوقت لنفسها الضيقة وروحها المعذبة، قال: صلاة الظهر والعصر. وأشار إلى الراديو، ثم أكمل حين وجدها تزفر بقوة: في العام القادم إن شاء الله نكون هناك.

أجابت، وقد لانت نفسها قليلًا: من يدري؟!

قال بتبسط: كل سنة وأنت طيبة. وقبل أن يكمل، قاطعته ناهضة من مكانها، تناولت عكازها، وخطت نحو الكنيف.

يعرف غضبها، وقسوتها على نفسها قبل أن تقسو على غيرها، قال: سنرش الواجهة بالجير.

توقفت، لكنها لم تعلق، ثم أكملت خطوها.

قام عيد وسار خارجًا من باب البيت.

ملأت إناء وضوئها وراحت إلى النخلة، حيث اعتادت أن تتوضأ تحت النخلة ثلاث مرات في اليوم؛ عند صلاة الظهر، وعند صلاة العصر، وعند صلاة المغرب. تجلس في ظل النخلة، كما اعتادت عائلتها من قبلها أن تفعل، بعد أن تخرج من الكنيف، تحمل الماء وتشرع في الوضوء.

بعينيها الكليلتين، بالكاد ترى عبر الباب، عيد وصبيانه، وهم يقومون برشِّ واجهة البيت بالجير، قالت: سأذهبُ لأُغلق الباب.

كان البيت قد أُعيد طلاؤه بالجير وتزيينه بالرسوم عدة مرَّاتٍ قام بها أسلاف عيد، المرة الأخيرة، كانت حين وافق ابنها البكريّ سعيد على الزواج، وبدأ الإعداد له، ولكن قبل أن يبدأ عيد بالرسم، كان سعيد قد رحل، مخلفًا حسرة ما تزال تعيشها السيدة حتى الآن، وطلاء تقشَّر بفعل الزمن والشمس والرياح وأيدي العيال الذين يأتون للعب في السَّاحة أمام البيت.

فرغت من وضوئها، تساندت على عُكَّازها والنخلة حتى استوت واقفة، جالت بعينيها في أرجاء البيت، استدارت نحو خلفية البيت، ومن هناك جاءتها هذه المرة الأصوات.

الأنين مختلطٌ بصوت السَّلاسل، برائحة الدَّم والعرق البشريّ، كانت الأصوات تلتَفُّ حولها كدوَّامة ريحٍ هائلةٍ. أقسى ما يتعبها ويمرض روحها؛ الألم، وصوته، صوت الألم الذي ينبعث الآن من الزَّرائب، جعلها تتهاوى، وبالكاد تستند على جذع النَّخلة قبل أن تسقط، حاولت بيديها سدَّ أذنيها، غير أن الصوت كان ينفذ إليها من مسام جلدها، ويبدو كأنه ينبعث من داخلها، هتفت: يا رب!

الأنين يتحول إلى وحشٍ، يصرخ مطالبًا برحمته، بحريته، في إبعاد القيود عن لحمه، القيود التي تفجر الدم من المعاصم والأقدام والصدور والرقبة، العرق الذي يعبق الجو برائحة الكراهية والقسوة، مطالبًا بانتقامٍ عادلٍ.

تذكر الآن ابنها سعيد حين حمل معولًا وجري به وهو يَهْذي بكلامٍ غير مترابطٍ إلى الزَّرائبِ، يحاول هدمها، سدَّد أول ضربةٍ والثانية، في الثالثة تهاوى وهو يبكي، كانت هي قد جاءت وضمته إلى صدرها، تحاول أن تأخذه بعيدًا، رفض، وأزاحها، ودفع باب الزريبة ودخل، الآن تعرف، أن الأنين كان يهاجمه، يضربه في صميم مشاعره، حين دخلت وراءه، قال: هذا إرثنا يا أمي؛ هنا يكمن إرثنا.

كانت قوية بشكل جعلها تتمالك نفسها وتقول: لكننا لم نفعل شيئا من هذا؟

- هو إرثنا على كل حال يا أمي، العبيد.

كان يهذي، وكانت أول مرةٍ تدخلُ إلى واحدةٍ من الزرائب الخلفيَّةِ، قال: لن أقدر على هدمها، ستبقي شاهدةً علينا.

مدَّتْ يدها تحاولُ إخراجه من الزريبة، لكنه مال نحو الأرض والتقط شيئًا لم تره قبلًا، حين تبيَّنتْه، اكتشفت أنها سلاسل حديديَّة غليظة قد ضربها الصَّدَأُ، قال لها: اخرجي يا أمي، وأغلقي الباب من الخارج.

نظرت إليه مبهوتةً، حاولت الاقتراب منه، لكنه أخذها من يدها وأخرجها خارج الزِّريبة، قال: أغلقي الباب، وعودي غدًا في مثل هذه الساعة.

كانت من القوة بحيث أغلقت الباب بالرِّتاج الثقيل، كان الموقف اختبارًا حقيقيًا وجادًا لمقُولتها بأن لكلِّ ابن آدم دقَّةٌ في رأسه تحكمُ أفعاله.

حين عادت في اليوم التالي، في وقتِ الظَّهيرة -كما الآن- وفتحت الباب، رأتْ ما أذهلها وأوشك أن يُسْقِطها مغشيًا عليها لولا تماسكها في اللحظة الأخيرة، كان ابنها عاريًا إلا من سِروالٍ يحجبُ عورته، تكبِّلُ السلاسلُ والقيود رجليه ويديه ورأسه وصدره، والدَّمُ متخثِّرٌ في أكثر من موضعٍ منه، والزَّريبة تفوح برائحة عفنٍ لم تدرك كُنهها حتى الآن.

أسندت ظهرها على جذع النخلة وأنفاسها متسارعة، تحاول أن تملأ صدرها بالهواء الذي تحسُّ بقوةٍ تجذبه بعيدًا عنها، كان واضحًا أنها على وشك الدُّخول في غيبوبةٍ.

نظرتُ نحو الباب، هل كان شيءٌ يتحرك جاريًا نحوها؟

كان عيد الذي نقل له أحد صبيانه أنه رأى السيدة تسقط بجوار النخلة.

- ماذا كنت أقول لها؟

تساءل عيد وهو خارجٌ من عند السيدة، يعرف روحها الحسَّاسة ونفسها التي أصبحت ضيقة، لا تكاد تتحمل أية معارضةٍ، وهي لو علمت بما قمت به منذ الصباح، ربما لقاطعتني، أو لراحت فيها.

خرج من الباب، وأمر صبيانه بالبدء في طلاء الواجهة، قال: أريد الانتهاء سريعًا.

تركهم وذهب إلى بيته، وعاد بعد لحظةٍ، يحمل أكواب الشاي التي أعدتها "عزيزة" زوجته، نادى على واحدٍ من العمَّال، وأمره بتوزيع الشَّاي على باقي العُمَّال، وجلس مواجهًا للحائط، يرتشف الشاي بقلقٍ وتوترٍ ظاهرين، كان الطِّلاء القديم قد تقشَّر في أكثر من موضعٍ بالحائط، وغطَّاه الغبار، بالكاد تلمح الرسوم والخطوط القديمة.

تذكَّر آخر مرَّةٍ طُليت فيها الجدران، كانتْ قبل أسبوعٍ من زفاف سعيد من ابنة خاله الذي لم يتم، تنهد وهو يأخذ نفسًا عميقًا من السيجارة التي أشعلها، فسأل: كم سنةً مرَّت؟

كان واحدٌ من العمَّال يكنسُ الغبار من الحائط، فبدأتْ بعض الكلمات والرسوم في الظهور الواضح، تبسَّم عيد، وقال: يا صاحبي كأنه بالأمس. ثم خفض عينيه إلى الأرض قبل أن يلحقها الغبار المُتَطاير، وهتف بصوتٍ لا يريد لأحدٍ أن يسمعه، ولا حتى نفسه: هل للزَّمن قيمةٌ؟

يعرف أنَّهما -سعيد وهو- وُلدا بنفسِ الليلة، لم تؤكِّد واحدة من الأمّيْن، أمه والسيدة، أيٌ منهما ولدت قبل الأخرى، وكما كان مكررًا سابقًا في تاريخ عائلته، كان الابن الأول، الذكر، فلذا صار عيد مباشرةً، مثله في هذا مثل أبيه، وجده، وجد جده، إلى أن يصلَ إلى عيد الكبير الذي لقيه سيُّدنا الخضر. تربيًّا سويًّا، لكن أيام الصِّبا ولَّت، وبدأت الدروب تتقاطع.

تنبه إلى الرسم القديم الذي ظهر على الحائط، كانت لسيدةٍ تجلسُ فوق مصلاة، مزخرفةِ الألوان، وإن كانت باهتةً الآن، تلفُّ السيدة طرحةً خضراء تلمُّ وجهها ورأسها، تتدلى منسدلة فوق جسدها المتربِّعِ فوق المصلية، بسمة هادئة مطمئنة تشعُّ من ملامحها الرَّاضية، وعيناها تنظران بعيدًا كأنها تتطلع إلى شيءٍ غامضٍ، لكن روح السيَّدة تبدو عارفة به، مما يجعلها راضيةً بهذا القدر، الآن يدرك عيد أن هذه الرسمة، لم تكن من خياله، لكنه شاهد هذه النظرة الطافحة بالبشر والرضى فوق وجه السيدة حينما عادوا من منزل عثمان أخيها بعد أن خطبت ابنته زينب لابنها سعيد. بعد أن عاد ثلاثتهم إلى المنزل، خلعت السيدة ثوبها الأسود القطيفة، وأخذت الماء وشرعت في الوضوء، سعيد الذي كان واجمًا وقتها علَّق قائلًا: ستصلِّي صلاة الشُّكر.

تبسَّما سويًّا وجلسا على السرير الموضوع بحوش البيت، راحا يُثرْثران بذكرياتهما القديمة، بصوتٍ تضربه المرارة ويتخلَّله الصمتُ والتنهُّدُ، قال

سعيد: سأشربُ شايًا. نهض عيد وقال: اجلس، اليوم أنت الأمير، العريس، سأعدَّ الشَّاي.

حين دخل إلى الصَّالة كانت السيدةُ جالسةً فوق المصلية تواجه الضوء، قابلته بهذه البسمةِ والنظرةِ الذَّاهلة التي تستحوذ على عينيها، تسمَّر مكانه وظلَّ واقفًا، لا يدري ماذا يفعل؟! إلى أن سمع السيدة تقول: سأعدَّ لكما القهوة.

يعرف الآن الإضافات التي أضافها حين بدأ يرسم السيدة فوق المصلية، الطّرْحة الخضراء، السبحة التي في يدها، الزَّخارف التي تزين سجَّادة الصَّلاة، لكن ما لم يفهمه حتى الآن، كيف أنه في بعض الحالات، وهذه واحدةٌ منها، أنه عندما يشرعُ في الرَّسم، لا يبذل أيَّ جُهْدٍ في تذكُّرِ الملامح، أو يُدَقِّقُ كثيرًا في خطوطه التي يخطُّها فوق الحائط، يعرف فقط اختيارَ اللون المناسب، ويترك يده لتجري بالخطوط التي تملكُ عليه خياله وتصوُّره، في لحظاتٍ كثيرةٍ، كان يقول، حين يسأله أحدٌ عن سرِّ الدِّقة والوضوح، التي تجعل رسومه كأنها مصورة بالكاميرا، كان يقول بغموض: الخطوط كلها هنا. ويشير إلى صدره. وهنا. ويشير إلى الجريدة، ريشته. الرسوم تخرج عندما أغمس الريشة في اللون وأضعها على الحائط.

عاد من تحديقه في الرسمة لما قبضت "عزيزة" على ذراعه حين رأت أنه لم يردّ على ندائها.

أفاق وتبعها مبتعدًا عن العُمَّال، كانت لتوها قد فرغَتْ من الخبز وجاءت لتأخذَ أكواب الشَّاي الفارغة.

قالت: منذ الفجر وأنت غائبٌ.

- كنت أقضي بعض المصالح.

- مصالح!

تعجبتْ، ثم أضافت: يوم الوقفة؟!

يعرف إلحاحها، واحتياجه للاختلاء بنفسه: ذهبتُ للاتصال بأولاد العمة.

ضربت يدها على صدرها، وازداد جحوظ عينيها، لكنه أكمل دون أن يهتم: نعم، واتصلت بالهاتف ببعض منهم.

- جننت.. والله..

قاطعها قبل أن تكمل: وطي حسك، وإياكِ أن يعرف أحد.

- والعمَّة؟!

- خصوصًا العمَّة.

- سيأتون؟

نظر بعيدًا عن عينيها، وحتى ينهي الحوار: لا أدري؟! ثم أمرها بالانصراف، وجلس مهدودًا في ظل الحائط الهارب الذي تأكله شمس الظهيرة، وبينما يُخرِجُ سيجارته، سمع صوت أحد العمَّال فوق رأسه يقول: السيدة تسقط بجوار النخل .

رمى سيجارته من فمه، وهرول متخطيًا الباب.

وضعها فوق سريرها، وقلبه يتخلَّعُ بين ضلوعه، الهلعُ يسيطر عليه. خوفه من أن يصيبها مكروه، تقافز دواجنها فوق السرير كأنما تريد الاطمئنان على السيدة، زاد من توتره، أحس كأنه مشلولٌ، لا يدري ماذا يفعل، يفرك بقوةٍ ناعمةٍ كفيها بين راحتيه، يود لو يبعث إليها بالحرارة، كي تستيقظ، أن تفتح عينيها، فمها، تحرك لسانها ولو بشتمِه، منذ لحظات حين التقطها من جوار النَّخلة، هاله الحمل الخفيف والهش الذي يحمله بين ذراعيه، يعتقد بأن وزن الإنسان يتضاعف حين مرضه أو موته، لكنها بين يديه كما لو كانت واحدًا من أطفاله الصغار.

ينظر بقلقٍ لوجهها المستكين والذي تضاعفت حِدَّة التجاعيد فيه، كأنما هي طرق للزمن الذي عبر منها، كان من قبل يتساءل عن قيمة الزمن، الآن هو يحس بقسوته البالغة، كان ينظر إلى الزمن ليس كغريمٍ لا يمكن منازلته، ولكن إلى قدرته الهائلة على قلب الأوضاع وإصابة الروح بالعطب، الجسد القادر والعفيُّ أصبح الآن في هشاشةٍ لا توصف.

حينما ذهب وهاتف بعض أبنائها في الصَّباح، كان يدفعه إحساسه بقسوة تركهم وهجرهم لها، لكن الآن يدركُ أنَّ المسألة أعمق وأعقد من تصوُّره البسيط، وتذكر على نحو مبهم محاولاته الدائمة لجعل ألوانه غير قابلة للانمحاء والتحول، تلك المحاولات التي تفشل ويبدأ من جديد. حين وقف -ذات مرة- أمام واجهةِ أحد المعابد الفرعونية، وجد بعض الألوان الزاهية، أدرك -لحظتها- أنه يوجد طريقٌ ما لقهر سطوة الزمن، لكن الإنسان آه.. آه.

تأوَّه وهو يهشُّ دواجن السيدة المتحلقة حولها، البعض منها قد نطَّ فوق حجرها وأقدامها، رغم الهدوء الشَّفيف الذي يكسو وجه السيدة، وتنفسها البطيء، إلا أنَّ التشنُّج والأنفاسِ المتسارعة تنطلق من عيد الذي لا يعرفُ على أي كيفيَّة يتصرف!

كان على وشكِ الانهيار حين دخلت عزيزةُ وهي تهتف مخطوفةً: مالها؟ وكمن شعر بمن ينقذه ابتعد مُفسحًا الطريق لها، حين رأت وجه السيِّدة، ذهبت ناحية الزير وملأت الكوب وعادت، بيدها اغترفت الماء ونثرتْه على وجه السيِّدة التي شهقت، ثم فتحت عينيها، وتبسمت للوجهين المحدقين بها.

زينبُ تفتح جروحًا قديمةً

استيقظتْ من نومها على صوت زعيقٍ عالٍ، رهَّفت سمعها حتى تبينت النَّبرات، كانت زينب ابنة أخيها وعيد.

- من سمح لك؟

- لست في حاجةٍ للإذن.

- ليس من حقك.

- عيب يا زينب.

- يا عمة! بصوتٍ عالٍ نسبيًا: أين عمتي؟ دون أن يكون السؤالُ موجَّهًا لأحدٍ.

تبسَّمت العمَّة وقامت من فوق سريرها، لأول مرةٍ تحسُّ بدواجنها راقدةً بجوارها تحوطها مُشَكِّلةً سياجًا حولها، كأنما تحميها أو ترقُبُها في رقدتها، هشَّتْ الفراخ والحمام الذي تطاير مستبشرًا بقيام سيَّدته.

نزلت من سريرها مستندةً على عُكَّازها وخَطَت خارجةً كي تمنع التَّلاسُن الدَّائر بين زينب وعيد، لكنها توقفت حين دخلت زينب مندفعةً وهي تقول: أنه يَرُشُّ البيت بالجير!

ردت العمَّة مبتسمةً: كلُّ سنةٍ وأنت طيبةٌ يا ابنة أخي.

الخجل هو ما أحسَّت به زينب، فقالت مخفِّضةً من حدَّتها: آسفةٌ يا عمتي. وتوقفت لتأخذ نفسها قبل أن تُضيف: أنه يتصرَّف كمالكٍ للبيت.

- ما أزال حيَّةً يا بُنيَّة.

للمرة الثانية يُخجِلها ردُّ العمة، صمتت هذه المرة، ثم تقدمت واحتضنت العمة وهي تقول: كل سنة وأنت بخير.

تلقتها السيدة في حضنها بودٍّ وتفهُّم كبير، وربتت على ظهرها كأنها تهدهدها.

اعتادت زينبُ أن تأتي إلى عمتها في المواسم المختلفة، مجيئها دائمًا يسبق العصر، تتسامر معها قليلًا، ثم تقوم لتؤدي بعضًا من أعمال البيت، وخاصةً الطبخ، تساعد عمتها في طبخ المواسم، تقوم زينب بالذَّبح لأنها تعرف عمَّتها ترتاع كثيرًا، وتخشى أن تمدَّ يدها بالسكين تجاه واحدةٍ من دواجنها دون أن يخالجها أيُّ شعورٍ بالخجل ليس من نفسها، لكن من دواجنها على أقل تقدير.

محنتها الأساسية كانت قد بدأت في الظهور بعد أن فرغ البيت حولها، في البداية كانت الجدة، فاطمة الأولى، ثم الأم، ثم بناتها كن يذبحن، عندما رحل الجميع تباعًا، إمَّا بالموت أو بالانتقال إلى مكان آخر حيث تبدأ الحياة الجديدة المستقلة، كانت في ذلك الوقت لوحدها، ظلت شهرًا كاملًا دون القدرة على النظر بصراحةٍ إلى دواجنها، حتى عاد سعيد من واحدةٍ من اختفاءاته المتعددة، أرادت أن تحتفي به، تعد له عشاءً جيدًا، فاخرًا، دخلت إلى الحظيرة واختارت أسْمنَ ما لديها من الدواجن، وحين خرجت به، ظلت يدها القابضة على السكين غير قادرةٍ على التحرُّك، فغلبها البكاء من القهر، قهر ضعفها، ورهافة حسِّها، قالت مُعلِّلة ذات مرةٍ: هل يقدر الواحد على ذبح أبنائه؟ وحين ترى الاستغراب في العيون والوجوه المتسائلة تضيف: حتى النَّبي إبراهيم لم يقدر!

زينب التي تعرف عن عمتها ذلك، تأتي إليها حتى من قبل خطبتها لسعيد، لم تنظر زينب إلى هذا على أنه نوع من العطف على عمتها، ولكنه

واجبٌ عليها تؤدِّيه، وبكثيرٍ من الحبِّ، خاصةً أنها متعلقةٌ بعمتها منذ أن كانت صغيرةً، لا تعرف الآن ما الذي دفعها لهذا التعلُّق، أهو حنان العمَّة الشديد، أم قوة شخصيها التي تأسرها حين كان يحكي عنها أبوها؛ عثمان، وما تلمسه هي من هذه القوة، فرفضها مثلًا أن تترك البيت بعد رحيل الجميع من حولها، أو حتى السَّماح لأحدٍ من إخوتها أو أولادهم بالعودة إلى البيت، الجميعُ يعرف أنها صاحبة البيت، هكذا أوصَتْ الجدَّة، فاطمة الأولى، ولم يعترض أحدٌ، وهي تصرفت من هذا المنطق. كان والدها عثمان، كثيرًا ما يصفها –زينب– بأنها تشبه عمتها، لذا لما جاءت العمة خاطبة لها، لم يكن في الدنيا أسعد منها.

كانت قد سمعت عمتها تردد أكثر من مرةٍ: لكل ابن آدم حكايةٌ تُمَيِّزه، خاصةٌ به، الشخص عديم الحكاية، كأنه لم يمر بهذه الدنيا، إننا في هذه الحياة موجودون كي نصنع حكاياتنا.

في تلك اللحظة –لحظة الخطبة– اعتقدت زينب أن حكايتها الرئيسية قد بدأ أول فصولها، فالإقامة داخل البيت الكبير إحدى أمنياتها، لكن القدر لم يُمْهلها حتى تتمّ حكايتها.

تنظر العمة –الآن– إلى ابنة أخيها، وزوجة ابنها –هكذا تعدها حتى الآن– وهي تُعمِل يدها بهمةٍ عاليةٍ في تنظيف البيت، كي يكون جاهزًا لاستقبال نهار الغد، نهار العيد، حيث سيكون من بعد صلاة الفجر حتى

صلاة العيد خلية نحلٍ، بين داخلٍ وخارجٍ، وجالسٍ وواقفٍ، ومُسلِّمٍ ومُوَدِّعٍ، قالت لها: أدخلي الحاصل وأخرجي الأباريق.

وهمَّتْ لتقوم، لكن زينب أشارت بيدها: بالله عليك يا عمة، استريحي أنا أعرف كل شيء.

تبتسم السيدة وهي تقول في سِرِّها: سيدة البيت، كان يجب أن تكون، حين خَطبتُها، كنتُ أدرك أنها الوحيدة من بنات إخوتي -الرجال- التي تصلح أن تكون سيدة هذا البيت خلفي.. آه.. يا لفرحتي القصيرة لما وافق سعيد بعد طول عنادٍ على الزواج من ابنة خاله.

تتذكر الآن كم عاندها، وكم راوغها، وكم تدللت عليه وقست كي يطاوعها ويقبَل بالزَّواج، تزوج كل إخوته وأخواته، وظل هو بلا زواجٍ، بلا غيرةٍ من إخوته أو من الشَّباب الذين في سنِّه، خاصةً الولد عيد، صاحبه، كان أولادها يتزوجون ثم يرحلون، وهو يقول لها: انظري يا سيدة المنزل، اللعنة تحل بأيِّ أسرةٍ تبدأ في التكوين، لماذا تريدينني أن أرحل بعيدًا عن هنا ولا أعود؟

قالت له: أنا كبرت، وأريد صوتًا يؤنسني، يرفعُ عنِّي وحدتي، يريحني في أيامي القليلة الباقية. في آخر مرةٍ عاد فيها ، قال لها: سأبقي معك، لن أرحل ثانية، فقد عرفت علاجي. وكان علاجه أن يقيِّد نفسه في السلاسل الغليظة بزرائب البيت الخلفية.

كان عليها أن تخطو خطوةً أبعد، لَمَّا رأتْ استقراره بالمنزل، وتكرر عملية التقييد، جاءت بالبنات إلى البيت، بحجة أن يساعدنها في أعمال البيت المرهقة والتي لا يجيدها هو، كانت زينب بينهنَّ تتحرك كأنها ملكة تنظر إلى ابن عمتها على أنه كائنٌ مسحورٌ، يجب أن يكون بعيدًا عن أعين البنات، صويحباتها. هكذا رأت السيدة، وكانت تسَرُّ لذلك.

جاءت ضربتها التالية مباشِرةً، وأكثر إصابةً لهدفها، قالت له مرَّةً ورأسه في حجرها: أريد عيالًا يقولون لي يا جدة.

ارتجف رأسه بين يدها، هكذا أحسَّت، فأكملت: سئمت يا عمة. سكن رأسه، ولم يُعلِّق، بيد أنه لم يَنَم ليلته، عند الفجر أخبرها بموافقته على العروس التي تختارها، وكانت قد اختارت زينب منذ وقت بعيد، زينب التي تغسل الآن الأباريق وتعبئها بالماء، كي يتوضأ منها الرجال في الصباح، قبل صلاة العيد.

دخلت زينبُ وأغلقت الباب خلفها، في كل مرةٍ تجيء إلى هنا، تجد نفسها تفعل ذات الفعلة، تبدأ عملها في التنظيف والترتيب والطبخ بسرعةٍ ودقةٍ في نفس الوقت، لتجد نفسها آخر الأمر داخل هذه الغرفة التي كانت ستزف فيها، غرفة سعيد، والتي ظلت على حالها، خالية من أي شئ سوى حاجيات سعيد التي كومتها السيدة، العمة، عقب رحيله، ملابسه، صناديق الكتب، صندوق للإسطوانات، وآخر للبيك أب، والتي لا يستطيع أحدٌ أن يلمسها، الطِّلاء الذي غطَّى ثلث حوائط الغرفة، ما تزال بعض الرائحة القديمة قائمةً داخل الغرفة التي لم يقم أحدٌ بتهويتها منذ رحيل سعيد قبل زفافه بأيام، رؤيتها لعيد -الذي صارت تمقُتهُ منذ تلك اللحظة البعيدة- حرَّكت هواجسها القديمة، فوجدت نفسها في قلب تلاسنٍ حادٍّ معه.

تنهَّدتْ تَوَدُّ لو تزيح الثقل الجاثم على صدرها، لم تدْرِ متى دخلت أول مرةٍ هنا بعد رحيل سعيد؟ لكنها تذكر المرة الأخيرة قبل الزفاف الذي لن يتمّ أبدًا، كانت الحجرة جيدة الفرشِ والتنظيم حين قادها سعيد إليها، قال لها: سأسرُّ لك بأسراري. كانت تعتقد أنه يوَدُّ الاختلاء بها كما كانت تحكي صويحباتها، ترددت في البداية، لكن قبضة يده الحاسمة على معصمها جعلتها تطيعه وتدخل، دائمًا كانت تنظر إليه على أنه رجلٌ مختلفٌ، ولا تعرف على وجه اليقين ما الذي دفعها لهذا الاعتقاد؟!

حين دخلت قال لها: اجلسي. قعدت على حافَّة السرير، قلبها يدقُّ، عينها تتابع يديه، ليس خوفًا منه أن تعصف هاتان اليدان بها، ولكن لعدم استقرارهما ودوامهما على الحركة، بالإضافة إلى أنها كانت تريد أن تضع عينيها على شيء، بعيدًا عن عينيه التي وصفتهما لصويحباتها: بأنهما بلا قرارٍ، وأنها غارقةٌ فيهما.

قال: ما سوف أقوله، سيظلُّ سرًّا، لا أحد يعرف به، حتى أمي؛ عمتك.

أرادت أن تسأله: لماذا؟ لكنها طأطأت رأسها موافقة.

قال: يا ابنة خالي. تنبهت أنه لم ينطق اسمها، كانت تود لو سمعّتْه يتلفظ به، لكنها واصلت الاستماع: هذه العائلة ملعونة، لم تترك لنا سوى إرثها الثقيل. حاولت أن تستفهم عن العائلة التي يقصدها، لكنها لحظت أنه يوليها ظهره، وينتفض وهو يتحدَّث: من الخطأ أن نأتي بأطفالٍ ستحلُّ عليهم نفس اللعنة التي نرزح تحتها، اللعنة، قدرنا، الشَّتات.

توقَّفَ قليلًا، كي يلتقط أنفاسه المتسارعة، وهي حقيقةً لا تعرف عمَّ يتحدث؟!

- حين بدأ أجدادنا بالتجارة في العبيد، أخذوا الناس من بلادهم البعيدة، وشتتوهم في البلاد، بعيدًا عن أهلهم وعشائرهم، وأراضيهم وحكاياتهم، وأحبتهم، هذا ما علينا أن نؤديه الآن.

وقفت، تقدمت منه، تود لو أخذته في حضنها، علَّ باله يستريح ويبعد عنه الألم الذي تحسُّ بأنه يعتصره، استدار حين اقتربت، قال: ماذا! ألا تصدقين؟ هزت رأسها، تخطاها مبتعدًا: انظري يا ابنة الخال، أين أعمامك الخمسة؟ كل واحد في ركنٍ بعيدٍ عن الآخر، أولادهم أين؟ أخواتي، إخوتك، كل واحدٍ بمفرده، بعيدًا عن الآخرين، بعيدًا عن مهبط قدميه، عن أهله، حتى خالي، أبوك، يقيم في الطرف الآخر من القرية، قريةٌ كاملةٌ، بكل طُولها وعرضها تفصل بينه وبين أخته، عمتك.

أرادت أن تقول له: كل هذا لا يهمني، ما يهمني هو أنتَ. وهو كمن قرأ أفكارها سمعته يجيب: أريدك ألا تقلقي من صمتي الطويل وشرودي وتغيبي، ولكن تعلمي من عمتك الصبر، حتى تقدري على مواجهة هذه الحقائق حينما تلاحقك.

ثم فتح الباب وخرج، بقيت زينب ذاهلةً لفترةٍ، ثم خرجت ويقينها يزداد بأنه مختلف، لديه قدرة علي إيجاد كلمات غريبة وترديدها هذا ما أكدته ذات مرةٍ، لكن الشيء الأساسي والأكثر وضوحًا هو ازدياد تعلقها به.

مسحت زينب الدموع المتسللة من عينيها بطرحتها، وفتحت باب الغرفة، وخرجت لتجد عمتها أمامها، فألقت بنفسها في حضنها، قالت العمة بهدوءٍ: ما تزالين سيدة هذا البيت.

كانت الشمسُ تميلُ ناحية المغيب حين همَّت زينب بالمغادرة، في نفس الوقت كان عيد داخلًا يضمُّ تحت إبطه حزمةً من البرسيم، أوقفها كلام

عيد الموجه للسيدة: أيرضيك الذي فعلته زينب يا عمة؟ نظرت زينب إليه بغضبٍ، لكنها لم ترد، مالت على عمتها، احتضنتها وقبلتها، ثم همست في أذنها: إنه فألٌ سيئٌ.

ضحكت العمة، وأطلقت زينب من بين ذراعيها وهي تقول: هيا بلغي السلام إلى أبيك.

غادرت زينب دون أن تلتفت، قال عيد متشكيًا: حتى لم تنصفيني يا عمة!

قالت ضاحكة: لا عليك.

ألقى عيد البرسيم للبهيمتين، النعجة والخروف، بعد أن فتح لهما باب الزريبة، جرت بعض الدواجن ناحية الخضرة وبدأت في التقاط بعض الأعواد، ورجع هو وجلس بجوار السيدة، لحظ الاثنان تباطؤ النعجة والخروف، لكن قبل أن يتحرك واحدٌ منهما ليرى ما الذي يمنعهما، أطلَّا برأسيهما وخرجا على استحياءٍ شديدٍ، تلفَّتت النعجة حتى رأت سيدتها جالسةً فوق المصطبة، عدت نحوها و دفست رأسها في حِجْر السيدة التي بوغتت هي وعيد بتصرف النعجة.

مسحت بيدها على رأس النعجة وحاولت أن تدفعها بعيدًا عنها، غير أن النعجة ظلت متشبثةً بموضعها، كانت النعجة تدفع أنفها تتشمم السيدة؛ بينما وقف الخروف حائرًا بين البرسيم الملقى على الأرض وأفعال أمه فثغا بصوتٍ رفيعٍ، الصوت وحده الذي نبه عيد إلى الحزن النبيل الذي يسيطر عليه، فعاوته هواجس الظهيرة لما وجد السيدة مغشيًا عليها بجوار النخلة.

قال: مالها؟ يقصد النعجة، ويحرص على جعل صوته محايدًا قدر استطاعته.

قالت السيدة، وقد قامت تسحب النعجة من أذنيها ناحية البرسيم: إنها أمٌّ. استفهم عيد بهزةٍ من رأسه، قالت: تعرف أن العيد غدًا، وستفقد وليدها. استنكر عيد ولكنه لم يقو على المجادلة، فأكملت السيدة: وكما ترى، لم تأتِ بوليدٍ آخر، في كل عامٍ تسلمني خروفًا عفيًّا، حال عليه الحول، يصلح للأضحية، لكن هذا العام لم تحمل.

همهم عيد بكلماتٍ مبهمةٍ وبصوتٍ خفيضٍ، خوفًا من أن يدركه سمع السيدة، لكن يبدو أن أذن السيدة التقطت الهمهمة، فقالت وهي تحاول أن تضع رأس النعجة وسط أعواد البرسيم لتتشممها: قد صارت عجوزًا، وفرغ رحمها.

نفضت النعجة رأسها من يد السيدة وأعواد البرسيم التي تحوطها، وجرت نحو الخروف الواقف مستكيناً على غير عادته، ففي مثل هذه اللحظات حين يفتح له باب الزريبة كان يجري متقافزًا بين دواجن السيدة، يسابق أمَّه النعجة العدو في حوش البيت الكبير، حول النخلة، يلتقط بعضًا من الحشائش ثم يُغير عليها-أمه- ناطحًا، واثبًا فوقها، وهي تدفعه بودٍّ يثيره كي يعاود محاولته، أما الآن كما أشارت السيدة من قبل: في الهواء ما يخبرهما بشحذ السكين الغادرة.

لم يُطِقْ عيد الجلوس، كان الانقباضُ داخله يتزايد، فسار خارجًا، والسيدة تناولت عُكَّازها وخطت خلفه، بينما قرفصت النعجة ووليدها بجوار البرسيم الذي تعبث به الدواجن، دون أن يقرَبَاه أو يتحركا ليمنعا الدواجن من بعثرته فوق التراب.

ظلُّ الغروب كسا الساحة الأمامية للبيت، وتراقصت أشعة الشمس هناك في البعيد تودع النهار الآخذ في الانصِرام، ألقت السيدة نظرةً طويلةً لحوائط البيت المطلية بالجير حين زكمتها الرائحة الحريفة للجير، توقفت عينها عند الرسمة الباهتة لها وهي جالسة فوق سجادة الصلاة، أشارت إليها، قال عيد: منعت العمال من محوها. رمت العكاز وجلست على الأرض بمساعدة يديها، قالت: باب النجار مخلع.

ضحك عيد، وفهم تلميحها للعمال الذين يقومون بطلاء واجهة بيته، قال: منذ زمن وأنا أفكر في هذا، والأيام تسرقني، اليوم عند الفجر قررت، ذهبت وأتيت بالجير ونبهت على العمال. بالطبع لم يشر إلى باقي المشاوير التي قطعها في الصباح، خوفه من أن تقاطعه، أو تحرم دخلته عليها البيت، كان قد قطع على نفسه عهدًا بمراعاتها لسعيد، وهو ملزمٌ بالوفاء به، إكرامًا لصديقه وللعِشْرة والودِّ الذي يُكِنَّهُ لها، يدرك قوَّة تحمُّلها، وهذا ما يعجبه فيها، وإن كان يظن أن قسوتها هذه، تَطالُ روحها هي، تعمل على إضعافها، تدميرها، دون أن تُدركَ السيدة ذلك، يرجع هذا إلى تربيتها بين ستةٍ من الرجال –إخوتها– جعلها تتشبه بهم وبقوتهم، في أحوالٍ أخرى، يعتقد أن مثل هذه النشأة تُخرج فتاةً مُدلَّلةً، لا تقدر حتى على مواجهة أتفه الأمور، يتساءل: من أين تأتيها هذه القوة؟

حين جاء يسأل عن سعيد، كان الوقت بعد العشاء، لم يكن قد صادفه طوال النهار، كانت وحدها، جالسةً عند النخلة تحتسي قهوتها بهدوءٍ وتمتع

يندر أن يجدها فيها، قالت له: في الزرائب. ولما لم يفهم، حكت له ما حدث في الظهيرة بحياد من يقص حكايةً بعيدةً عنه، انزعج هو وركبه الكرب، قام واقفًا نظر تجاه الزرائب القابعة في ظلامها، أراد التحرك نحوها، غير أنها ردَّته بعنفٍ وحزمٍ: دعه. كان صوتها آمرًا بحيث يجعل من يسمعه، يظن أن الذي بالزرائب، ليس سعيدًا ، ابنها ، طفلها البكري، إنما واحدًا من العبيد الآبقين والواجب تأديبه وتهذيبه، لم يقدر على تحمُّل الوضع، فجرى خارجًا، وحين عاد في الصباح، وجدها مكانها، كأنما تحرس المكان لئلا يتسلل أحد إلى زرائبها الخلفية، وهو الذي لم يستطع النوم مكروبًا مما يحل بصديقه، استشاط غاضبًا، قال: ألست أمَّه؟ وهي بهدوئها القوي، والبغيض، أشارت إلى الباب، وقالت له: أُخرج وأَغلق الباب. أين تكمن هذه القسوة؟ تساءل هل نُولَدُ بها، أم إن الحياة تُعلِّمنا إياها؟ لا يستطيع التحديد، غير أن عشرته الطويلة لها، جعلته يتعلم ألا يعارضها بعنفٍ، يحاول ترضيتها بقدر الإمكان، لكنه يجري تصاريفه بعيدًا عن يدها وعينيها خاصة تلك الأمور المتعلقة بها، كذهابِه اليوم –بعد الفجر– للتحدُّث مع بعض أبنائها وبناتها.

- السلام عليكم.

كان الحاج أحمد ومعه مجموعةٌ من العيال يتقافزون حوله، قال: هيَّا لننظفها. وانطلق العيال يسبقهم زياطهم وزعيقهم العالي. سلم على عيد العائد من تأمُّلاته مصدومًا بعض الشيء، وراح وجلس جوار السيدة.

- كيفك يا عمة؟

- الحمد لله. قالت. وانتظرت إلى أن يستقر في جلسته، قبل أن تقول: أريدك في موضوعٍ. قال مبتسمًا: خيرًا إن شاء الله . وقال عيد: أنا ذاهبٌ لأتابع العمَّال.

تمتدُّ السَّاحة بطول البيت، مساحةٌ شاسعةٌ، تمثِّل السهل المبسط تحت الجبل، حين جاء الجدُّ وبنى البيت وجعل ظهره محميًا بالجبل، ترك مساحةً كبيرةً أمامه كي يقيم فيها احتفالاته الخاصة، وأيضًا كي يربط ضيوفه وزواره التُّجار ورجال الشرطة والسلطة وبعض كبارات البلد ركائبهم من خيولٍ وإبلٍ وبغالٍ وحميرٍ، حيث مدَّ حبلًا طويلًا، ثبَّته بالأرض، ومنه مدَّ حبالًا صغيرةً متباعدةً كي تُقيِّد البهائم بها.

هذه الساحة التي أُهمِلَت في أزمنةٍ تاليةٍ، حيث كانت مفروشةً بالرمل الخشن وترشُّ بالماء قبل بدء الاحتفالات، تحولت إلى مكانٍ تؤدى فيه صلاة العيدين، حيث الخلاء الذي يجاورها، جعلها مكانًا مثاليًا لأداء الصلاة في الخلاء، وأيضًا لاتساعها الذي يساعد على ضمِّ الأعداد الغفيرة للمقبلين على الصلاة.

على مسافة كافية بنى بالطوب اللبن منبرًا مكونًا من ثلاث درجات كي يقف الإمام عليه ليلقي خطبة العيد بعد أداء الصلاة، وهذا ما حدا بأهل البيت، بعد تحوُّل ساحتهم إلى ساحةٍ لصلاة العيد، إلى ملء مجموعةٍ من الأباريق بالماء، ليستطيع المتأخرون الوضوء قبل الدخول في الصلاة، حيث يتجمع الناس بالمسجد الجامع، ويبدؤون في التكبير والتهليل، حتى قرب وقت صلاة العيد، فيخرجون قاصدين الساحة، وتكبيرهم وتهليلهم يتعالى بازدياد المنضمين إليهم، أما الذين يأتون مُهَرْوِلين، يدخلون البيت،

ويردُّون السلام بلهوجةٍ وهم يختطفون واحدًا من الأباريق الكثيرة المُعَدَّة، والسيدة بثيابها النظيفة والمعطرة، تبتسم، وترد تحياتهم ببشاشةٍ عاليةٍ.

باستثناء يومَيْ العيد، تظلُّ الساحة خاليةً، اللهم إلا إذا عد لعب مجموعةٍ من العيال القريبين–بحكم منازلهم منها– شغلًا لها، غالبًا ما يأتي العيال في الأوقات التي تسبق الغروب، وأحيانًا بعد صلاة العشاء حين تكون الليالي قمريةً، كانت السيدة تخرج، تجلس على عتبتها، ترقب ألعابهم وأحوالهم المتبدلة والتي لا تقر على قرارٍ، وغالبًا ما تعلق بكلمةٍ واحدةٍ: زمن.

الأطفال يلتقطون الحجارة والزَّلط من أرض الساحة ويلقونها خارجًا، والسيدة بجوار الحاج أحمد، جالسان مستندان إلى الحائط، قالت: أتحسُّ الحيوانات بدنو الأجل؟ تلقائيًا رد الحاج أحمد دون أن يحمل عينه بعيدًا عن العيال: أجل من؟

- أجلها.

تمهل قليلاً، ثم أجاب: في أحيانٍ كثيرةٍ يستطيع بعضها أن يرى الملائكة.. لكن..

قالت بنفاذ صبر: أسألك عن الموت، لا عن الملائكة؟

تعجب من أسئلتها، وإصرارها: لا أحد.

صمت، وصمتت، ولما أحسَّ بصمتها يطول، قام وأخذ الأطفال كي ينظفوا الساحة جيدًا، يخرج من جيبه قطعًا من الحلوى يعطيها لهم، والعيال تهلل ويزداد حماسهم للعمل.

ظلَّت في مكانها ترقبهم حتى غربت الشمس وانطلق في الجو صوت أذان المغرب، جاء الحاج أحمد ووقف جوارها، قال: الحجاج في طريقهم للمزدلفة.

أجابت بابتهالٍ حقيقيٍ: ربنا يوعدنا.

أخذ العيال في الانصراف جريًا نحو بيوتهم، وهو ظل واقفًا يريد قول شيءٍ يخفِّفُ الحِدَّة التي تركها كلامه، غير أنها لم تكن تنظر نحوه، فانسحب دون أن تشعر به، كان نظرها مثبتًا على الساحة التي نظفت تمامًا، لا تدري لماذا أحسَّت -وعلى نحوٍ غامضٍ- بأن الساحة أصبحت جاهزةً تمامًا لبدء سباقات الخيل؟! وهاجمها الصوت القديم الصبي: "أسرج المهرة الآن".

فصل في ذكر السباق

السعادة، حين تَعُدُّ المرات التي فرحت فيها، وصارت روحها مبتهجةً، تتقافز حولها، تجدها قليلةً، للحظاتٍ تُفكِّر بذاكرتها المشوَّشة، وتتهمها بأنها السبب، تلاعبها لتخفي عنها سعادتها التي عاشتْها طوال عمرها المديد، تتشبَّث بالفكرة للحظاتٍ، لكنها سرعان ما تؤوب وقد مسَّها طيف حزنٍ شفيفٍ، تقول: الحزن هو الدائم والسعادة نقاطٌ صغيرةٌ، مضيئةٌ، كفيلةٌ بمد أرواحنا بالقوة كي نواصل الحياة.

الآن تقدر أن تعدد مسراتها بهدوءٍ ورويةٍ، بعيدًا عن الانفعالات الوقتية، ودائمًا ما تجرها ذاكرتها إلى لحظة ركوبها المهرة وسط عزوتها، إخوتها الرجال، تحفزها للانتصار القادم، انطلاق المهرة في المرماح، وصولها لخط النهاية، تهليل المتفرجين، لَيُّها للجام المُهرة كي تستدير لتتلقي الهتاف، وسط عرقهما -المهرة وهي- الذي يضوي تحت سطوة الشمس الجنوبية المتوهجة.

كانت صبيةً قد استوت حين تسابقت لآخر مرةٍ، خرَّاط البنات قد أنهى لمساته -أو يكاد- خلال زياراته المسائية لها، وبان تعلق العيون بها، وهي تنبَّهت إلى هسيس جسدها، ونضجه كامرأةٍ تخطو خطواتها الأولى في درب الأنوثة.

كانت سعادتها قد بدأت خوفًا وتوتُّرًا وترقبًا حادًا لما بدأت تلحظ التغيُّرات البسيطة المتلاحقة التي تطال جسدها، كانت الجدة قد خبرتها عن خرّاط البنات ولمساته السحرية، لكن لما استيقظت على بقع الدم في سروالها -لأول مرةٍ- جرت إلى أمها التي ضمتها بحنانها الصامت ومسَّدت

ظهرها، وخبرتها كيف تتعامل معه، حتى الآن لا تدرك لماذا في هذه اللحظة لجأت إلى أمها؟ بينما تنام مع جدتها في نفس الغرفة، بل -وفي أحيانٍ كثيرةٍ- بين أحضانها، والأكثر من هذا تستشيرها في كل أمرٍ مهما صَغُرَ أو كَبُرَ، كانت دائمًا ترى أمها صامتةً، تؤدي أعمال بيتها بصمتٍ كبيرٍ، ترقب فقط بعينها كل شيء، ولا تُعلِّقُ، نادرًا ما كانت تراها تثور، فقط تلبي، تظلُّ طوال اليوم في حركةٍ دءوبةٍ دون إظهارٍ للتَّعب أو حتَّى التشكِّي، في البيت سبعة رجالٍ وثلاث سيداتٍ تعرف جيدًا أن عبء الخدمة يقع على كاهلها، لا أحد سواها، حتى ابنتها الصغيرة فاطمة لم تكن لتعتمد عليها، كانت تسوقها بلطفٍ بعيدًا عن أعمالها، لكن لما جاءت فاطمة وأخبرتها ببقع الدم، أخذت يدها ووضعتها في أعمال البيت، كانت تدربها، إخوتها الرجال لم يعلقوا، وكذلك الجدة، وإن علقت على شيء آخر، هو كثرة إختفاءات البنت فاطمة واختلائها بنفسها وشرود ذهنها، حاولت أن توضح لجدتها لكن لسانها لم يطاوعها، والجدة التي يبدو أنها أدركت ما يعتمل داخل الفتاة، ضمتها بحنو بالغ وبتفهمٍ كبيرٍ ولم تطالبها بتفسير لتأخرها الدائم داخل الكنيف أو إحكام إغلاق باب الغرفة عليها إن كانت لوحدها.

كانت فاطمة قد لحظت خلال السِّباقات الأخيرة تناقص الراغبين في التسابق معها، كانت تعلمُ بالشرط الذي وضعه أخوها، بأنه من يرغب في الزواج منها عليه أن يتقدم عليها في السباق، في البداية لم تُعِر الأمر أيَّ اهتمامٍ، كان ما يهمها فقط هو أن تركب المُهرة وتجري، وتسابق، تفوز، تتلقى هتافات النصر، لكن لما بدأ جسدها في الاستدارة وجذب العيون،

تناقص عدد الذين يتسابقون ضدها في المضمار، كانت تعرف أن الخاسر لا يحق له أن يطلب يدها أو حتى ينازلها مرةً أخرى، كانت إذن فرصها آخذةٌ في التناقص، نعم فرصها هي؛ فرصها في التسابق وفرصها في الزواج، فهي بأيِّة حالٍ من الأحوال لن تقدر على كسر كلام الرجال إخوتها، لن تقدر على الزواج بدون خسارةٍ في السباق، السباق الذي ما إن تدخله حتى تنسى كونها امرأةً، فقط، تعرف كيف تُوجِّه المهرة، متي تدكُّها بالركاب ومتى تسوطها ومتي ترخي اللجام، ثم تدكها الدكة الأخيرة لتحصد الانتصار المتوقع، حتى المهرة -ذاتها- باتت عارفة بطباع سيدتها وكيفية قيادتها، جسدها المشدود المتوتر، ينتظر فقط الإشارة، اللمسة الأخيرة لاجتياز السباق.

حين حاولت أن تُلمح لجدتها بموقفها، قالت الجدَّة: الفارس يعرف متى ينزل عن حصانه. ولم تزِدْ، أرادت أن تقول لها: إن تركي للمهرة يعني أني قد أتزوج من رجل لم يسابقني، فيسقط كلام إخوتي في الأرض، ويصير حكايةً تضاف إلى حكاياتنا الحزينة. لكن الجدة لم تسمع لها؛ قالت لها أمها: الرجال لا يحبون النساء المتفوقات عليهم. كانت قد حكت نتفًا من هواجسها لأمها وهي تساعدها في أعمال الخبيز استعدادًا لأيام عيد الأضحى المقبلة، ثم صمتت كعادتها، حاولت هي أن تستفهم منها، لكن الأم أكملت: على المرأة أن تعرف جيدًا متى تُرْخِي اللجام ومتى تَشُدُّه.

كانت الأيام الثلاثة التالية للعيد هي أيام سباق المرماح، حيث تبدأ الخيول بفرسانها بالتجمُّع عصر يوم العيد بالقرية، وتأخذ في التقاطر إلى ساحة السباق المجاورة لأضرحة بعض الأولياء المحلين، تأتي الخيول من القرية والقرى المجاورة ومن بعض البلاد البعيدة، فالسباق له أهميته في تحديد أسعار الخيول المتسابقة ورفع اسم العائلات المالكة لها بين القرى، وأيضًا مناسبةً جيدةً لاستعادة -ولو جزءٍ قليلٍ- من الأمجاد القديمة، والتي تمتلئ بها السِّيَر الشعبية والتاريخية التي يقصها الشعراء والحكَّاؤون على جانبي مضمار السِّباق، ما بين ربابة أو دُفٍّ أو جلسة سمرٍ فوق واحدٍ من الكثبان الرملية.

تبدأ السباقات في الضُّحى وتنتهي عند الظهيرة لتعاود نشاطها بعد العصرِ حتى غروب الشمس ليكون المساء خاليًا للعزائم واستعراض الكرم والحكايات، ثلاثة أيامٍ تجعل القرية في حركةٍ دائمةٍ كأنَّما تكفر عن سكونها الدائم الذي يعقب هذه المواسم.

منذ فجر ثاني أيّام العيد، أسرجت مُهرتها وارتدت مُلابسها التي حرصت عند حياكتها أن تظهرها كأنثى، كانت منذ فترةٍ قد أبدت اهتمامًا كبيرًا بملابسها، حين دخلت إلى أرض السباق بين إخوتها الرجال أدركت على نحو غامضٍ أنه ربما يكون آخر سباقٍ تركب فيه، ربما لنظرة الشباب والرجال نحوها، أحسَّت أنها نظرة ليست كسابقتها، النظر إلى فارسٍ، أو إلى طفلةٍ مُدلَّلة بين إخوتها، لكن نظرة رجلٍ إلى امرأةٍ، امرأة يشتهيها

ويرهبها في نفس الوقت، يرغبها ويخاف منها، ربما توترها الزائد هو ما جعلها ترتجف فوق سرجها، أو لعل هواجسها التي أوحت إليها بهذا حين تجرأ بعض الشباب بترديد كلمات وقحةٍ بعيدًا عن مسامع آذان إخوتها الذين انهمكوا في طقوس السباق، البعض منهم فوق خيله والآخر يقوم ببعض الأعمال التجارية، والبعض الآخر يمارس دور الزعامة، أما أخوها عثمان -والد زينب- فهو هناك في دائرة التحطيب، يصول ويجول ولا يقدر أحدٌ على مجاراته.

يومان مرا وانقضى ضحى اليوم الثالث، وها هي العصرية الأخيرة ولم يتقدم واحد من الفوارس ويطلبها لتسابقه؛ في اليوم الأول كانت مبتهجة لذلك، خاصة بعد فوزها السهل لذلك المتعاجب بنفسه، حتى أنها لم تعده من الفرسان، كان ينظر لها كعروس يمكن اصطيادها، وليس كفارسة تستحق النزال، لهذا أسقطته من حساباتها، تقول في نفسها: يخافون، يعرفون خطورتي. لكن مع انتهاء اليوم الثاني دب القلق والخوف في روحها، ولتهدأ روحها قليلًا، ولتعلن أيضًا عن تواجدها، أرخت اللجام للمهرة، فجرت قاطعةً أرض السباق وحدها، كأنها تستعرض، تقول: أيها الجبناء! كانت تتوقع حين عودتها إلى نقطة البداية أن يسارع واحدٌ منهم ويتحداها، مستغلًا الإنهاك الذي قد أصاب المهرة نتيجة للركض والاستعراض، كانت تعرف هذا، وتجازف به، روحها حَنِقَةٌ، تحسُّ بها ضَيِّقة، كأنما طوقها وخصرها يريدان أن ينشقَّا لينفجر الجسد المضغوط داخلهما، ليتنفس، لكن

لصدمتها لم يتقدَّم أحدٌ، حتى الكلمات الحذرة التي كانت تنطلق خلسة من بعض الأفواه، تخلت عن حذرها وزادت جرأتها ووقاحتها.

كان الضغط الذي تتعرض له أكبر من قدرتها على التحمل، كانت تقول: كنتُ محاصرةً بالكراهية، كنت أتنفسها، أتقلَّبُ بين نارها، كان عليَّ الصُّمود، لكن إلى متى؟! رأت بعض الخيول تأخذ طريقها للانصراف، في هذه اللحظة قررت التسحب والخروج، كان القهر أشدّ منها، تبحث عن بقعةٍ بعيدةٍ، تكون فيها وحيدةً، تريد البكاء، تعرف أن البكاء قدرة العاجز، لم تكن تدرك جيدًا -في هذا الوقت- سبب الكراهية التي تواجهها، تتساءل: هل لها يدٌ في ذلك؟ كانت عيناها غائمتين ممتلئتين بالدموع، لكن وضوح صورة أمِّها في ذهنها، جعل الدموع تتراجع، تدرك -الآن- أن قوَّتها، قدرتها على التحمُّل، تعود إلى أمها، وإلى صمتها الكظيم.

حين لوت عنان مهرتها للانصراف، أتاها صوتٌ: إلى أين يا ابنة العم؟ التفتت، كان مصطفى ابن عمها، فوق حصانه يقطع عليها الطريق، قالت دون أن تنظر في وجهه: راجعةٌ إلى البيت.

- تتركين السباق دون نزالٍ؟!

تنبَّهت جيدًا لوقْع كلماته، أهو شامت أيضًا، هكذا ذهب فكرها، شحنة الغضب التي بداخلها راكمت كلماتٍ قاسيةٍ داخلها، تدافعت إلى حلقها لكنها لم تخرج، أحسَّت بحشرجةٍ تمسك بها، وأتاها صوته مرةً أخرى: إلى أرض السباق، سأنازلكِ أنا.

- ماذا؟

ردَّت مندهشةً ومستنكرةً، نعم هو ابن عمها، متدلِّهٌ بها تعرف، وتعرف أنه فارسٌ، لكنه أبدًا لم يخطر ببالها أن تسابقه، حتى أيام تدريبها بين إخوتها وهي صغيرة، لم يسابقها أبداً، ما الذي دفعه الآن؟ الشفقة! ربما رأى الدموع المتحجرة في عينيها وهي لاهية.

مصطفى، كانت تعده واحدًا من إخوتها، لم تفكر فيه كرجل غريب عنها إلا حين بدأ اهتمامها يتزايد بجسدها، في أوقات كثيرة كانت تحس بعينيه وحركته تتجول قريبًا منها، تتفقد دائمًا أماكن تواجدها، كان ذلك يثيرها، يجعلها تتعمد الاختفاء في حال تواجده داخل البيت، لكن ها هو الآن يرى انكسارها الذليل فيسارع بمد يده، تملؤه الشفقة، أرادت أن تقول: لا. غير أنه –مصطفى– ساق المهرة إلى أرض السباق.

الشمس مالت نحو المغيب، وساحة السباق وقفت على قدم لما رأتهما يستعدان لبدء التسابق، كانت تقول: يريد أن يطيب خاطري. لكن هاجسًا آخر هاجمها: أيقدر على التفوق عليها؟ تعرف قدرته، رأت كثيرًا كيف يسوق حصانه ليكسب السباق الذي ينزله.

على الجانبين تراص خلق كثير، وامتدت الساحة الرملية واسعة وفسيحة ومهيأة لترى السباق الأخير لفاطمة، كان عقلها يعمل بسرعة وعينها تخالس النظر إلى وجهه الذي يبدو ثابتًا، لا تظهر عليه أية انفعالات بينما وجيبُ قلبها يتصاعد كما لو كانت تدخلُ السباق لأول مرة.

- ستتسابق على الشرط. قال.

- أيُّ شرطٍ؟ تساءلَتْ.

- شرط عثمان.

شرط الزَّواج، تذكرت، هكذا الأمر، ردها ذلك إلى قلب السِّباق وأبعد عنها تخيلها لروح الشفقة التي تسيطر على مصطفى وفعله، تبسَّمت، وغمرها هناء داخلي عميق.

أعطيت إشارة البدء.

انطلقت الخيل تسابق قدرًا قد خط من قبل، وانطلق التهليل، لم تكن تسمعه، حواسها كلها مركزة بالسباق، حين دكت مهرتها عند البداية أدركت عنف السباق، فمصطفى ليس بالفارس السهل، كان يحاورها ويحبط خططها في التضييق عليه، كانت تراه مبتسمًا وهو يقوم بذلك، فأغاظها، فدكت بركابها جانبي المهرة التي انطلقت كسهمٍ مخلفة مصطفى وراءها بمقدار ذراعٍ.

كانت نهاية السباق تقترب، والمسافة بينهما كما هي، ورنَّ بعقلها صوت مصطفي: أسابقك على الشرط. التفتت نحوه، وجدته مبتسمًا كأنما واثقٌ من الفوز، تعرف أن الأمتار القليلة الباقية هي التي تحدِّد الفائز، هنا تظهر قدرة الفارس وبراعته في خداع الخصم والتحكم بالحيوان الذي يعتليه، رأته يتقدم حتى يحاذيها، ولفحتها رائحة عرقه، فتذكرت الشرط القديم ورأت

يدها تشد اللجام، تكبحُ المهرة، تم هذا في لحظة دون إدراكٍ كاملٍ منها، غير أنها كافية لجعل مصطفى يتقدم عليها بذراع يكسب بها السباق، وبطرف عينها ترى طفلًا صغيرًا يلوح بيده غاضبًا، فقد رأى ما فعلتْ، شاهدته يحمل حجرًا من الأرض، حجرًا صغيرًا ويقذفه نحوها، كان يبدو مخذولًا، مخدوعًا، اكتشف الغشَّ الذي تعرض له.

الآن لما تستعيدُ الأحداثَ، تدقّقُ في ملامح الطفل، فتبهتها المعرفة، أنه عوض الله، عوض الله الحلبي الذي كان طفلًا وقتها، تقول: حتى الآن لا يقدر على مسامحتي، ورثنا كرهًا متبادلًا، لم نقدر أبدًا على التسامح، والتسامح لا يجيء إلا بعد النسيان، هو لم ينس خديعتي له، خديعتي التي قادتها المرأة بداخلي، وأنا لم أنس أبدًا أنه من غرر بصغيري وطفلي الأول سعيد، ياه، زمن.

الراديو يواصل بثَّه على الهواء، ينقل حركة الحجيج وصلاتهم للمغرب والعشاء في المزدلفة، وهي فوق مصليتها تتابع بأذنيها، ودموع تترقرق بعينها توشك على الانزلاق، وتلعن في سِرِّها الأحداث والظروف التي حالت دون ذهابها لأداء الحج، كم مرة، لا تودُّ التذكُّر، لكنَّ الشوق يعتصر فؤادها ويجعل روحها ضيقةً.

كانت عقب عودتها من الخارج قد أدخلت نعجتها والخروف إلى الزريبة بعد أن تمسَّحت بها طويلًا، كذلك وضعت العشاء لدواجنها ولنفسها، ثم هشَّتها برفقٍ إلى مواضعها، دواجنها لم تمانع، فمع طول العشرة أدركت -غريزيًا- طباع وتقلبات سيدتها، فعرفت الأوقات التي تعاندها فيها أو تعابثها أو تطيعها، من أول النهار، وحركة السيدة توحي لها بضيق النفس وضيق الروح، فآثرت السكينة وذهبت إلى مواضعها دون رفرفةٍ أو مشاكسةٍ.

سخَّنت ماءً واستحمَّت به، قالت: لما كنتُ صغيرةً، كنت أصحو قبل الفجر، استحمَّ وأرتدي ملابسي الجديدة للعيد، الآن، ربما لن..

جاءها عيد، شرب معها القهوة، ثم هشَّته برفقٍ ليعود إلى عزيزة زوجته، فهذه ليلة عيدٍ، وليس عليها أن تفسدها عليها بطول حديثها مع عيد، قالت وهي توصله عند الباب: غدًا لن أذبح الخروف. توقَّف مستفهمًا أضافت: روحي لن تقدر على تحمُّل ألمها. فهم أنها تقصد النعجة، لم يشأ أن يقاطعها، فانصرف، وهي أغلقت الباب خلفه وعادت لتجلس فوق مصليتها بيدها

مسبحةٌ، كان قد أهداها لها سعيد لما قرر البقاء والزواج، كانت تقول عنها: أشم فيها رائحته.

قامت وخرجت إلى الحوش الذي ينيره القمر، نظرت نحو النخلة، وباقي البيت، خاصة الزرائب الخلفية الواقعة تحت الظلال، رأت كأنما طيف يتحرك هناك، غير أن كلل بصرها منعها من التيقن، هشَّت الخاطر من بالها، وعادت إلى سريرها وتمددت عليه، قالت: بسم الله الرحمن الرحيم. ونامت.

فصل في ذكر الرجال

كانت السيدة قد أضمرت في قلبها، لما كانت في حملها الأول، أن تُطلق أسماء إخوتها الرجال على من سوف تنجبهم من الذُّكور، وبالترتيب الذي جاؤوا به إلى الدنيا، فهي طوال عمرها تعيش قويةً، قادرةً، تحت ظلِّ سطوتهم وقدرتهم، كما أن واحدًا منهم، إخوتها، لم ينهرها، أو حتى يقول لها أفّ في يومٍ من الأيام.

أطلقت اسم سعيدٍ على ابنها البكريِّ، وعلى مولودها الثاني علي. لكنها عدَلت بصراحةٍ عن عزمها حين لحظت ترابط مصائر أولادها، بمصائر أخوالهم، إخوتها، فسعيد الذي أظهر ميلًا واضحًا تجاه التشرُّد والانفلات من قبضتها، كذلك كان خاله الأول، والذي غادر العائلة إلى السودان دون عودةٍ مرةً أخرى.

حين انطلقت الحرب العالمية الأولى من عقالها، ولجأ الإنجليز والسلطة المصرية إلى القبض على شباب الأسر غير القادرة وترحيلهم للحرب وخدمة الإنجليز وإرسالهم إلي أتون الحرب المشتعل؛ وبوشاية مُحكمةٍ من العائلات الأخرى، جاء رجال السُّلطةِ للقبض على سعيد الكبير، ولما كان للعائلة قدرٌ -ما يزال- من القوَّة والهيبة استطاعت به أن تتفادى هذه الكارثة، في المقابل كان عليي سعيد أن يغادر القطر المصري كله، ولم يكن هناك سوى الأعمام الذين بقوا بالسودان -أثناء الطَّوْر الثاني من العائلة- فسافر إليهم، وكما انقطعت أخبار الأعمام منذ مدةٍ طويلةٍ، انقطعت أخباره أيضًا، لذا لما وضعت السيدة طفلها الأول بعد أكثر من مرور خمسة عشر

عامًا على هذه الواقعة، أطلقوا عليه سعيد، كي تؤكِّد لنفسها أولًا، ثم لوالديها وإخوتها وزوجها، بأنهم، لم ينسوْه.

جاء المولود الثاني للسيدة ذكرًا، فأطلقت عليه دون تفكيرٍ علي، الوقت أوائل الأربعينات، وشبح الملاريا يخيم فوق أجواء الصعيد، منذر بكوارث لا يمكن تفاديها.

بعد شهورٍ قليلةٍ من ولادتها رحلا سويًا، علي الكبير وعلي الصغير، في نفس الوقت نذر الحرب العالمية الثانية كانت متعاليةً، واليد الطويلة والقوية للسلطة استطاعت هذه المرة أن تمتد وتقبض علي أخيها الثالث موسى.

ضربتان موجعتان تلقتهما العائلة، بقدرٍ كبيرٍ من التجلُّد والصَّبْر، وعزَّة نفسٍ عاليةٍ في مواجهة الشماتة الطاغية للعائلات الأخرى داخل القرية، كل ذلك جعل السيدة تعمل بالها وفكرها طوال أيام وليالي الحزن المتعاقبة في مصائر أولادها، حيث أدركت بحسٍ غريزيٍّ بحتٍ التشابه الذي يربط مصائر أولادها وإخوتها، بترويةٍ وطول بالٍ قررتْ التحايل علي هذا الوضع، قالت: ماذا في يدي غير الحيلة؟

راجعت خلال لياليها الطويلة المؤرِّقة الأسماء التي تطلقها العائلة على أبنائها، بدأت تسأل عن أسماء الكبار من العائلة بدايةً من عبد الله الرحال، الجد الأول، وحتى الآن، لم تستغرب كثيرًا، حين وجدت أن أسماء بعينها تتردد كثيرًا داخل العائلة، أسماء الذكور، والإناث، وإن كنَّ قليلات، وتبسَّمت لما تذكرت إنها تحمل اسم جدتها، فاطمة.

كانتْ حيلتها ببساطةٍ تتجلى في اختيار أسماءٍ بعيدةٍ عمّا اعتادتْ العائلة أن تطلق من أسماء على أبنائها، فاختارت للولدين اللذين أنجبتهما بعد ذلك، نصَّار، وزين العابدين، والبنتين، حياة ومنتهى.

طوال الوقت كان يداخلها شكٌّ بأن حيلتها العاجزة لن تفلح في مواجهة حبائل القدر المنسوجة بإحكامٍ شديدٍ، لكنَّها تتراجع قائلةً: وهل أقفُ مكتوفة الأيدي؟ كان زوجها مصطفى قد أبدي تعجبًا واضحًا لما لحظ إصرارها على الأسماء الجديدة التي تختارها لأطفالها، كانت قد اتفقت معه في البداية على ما اعتزمته حيال أسماء إخوتها الرجال، حين راجعها، صمتت، أصرَّتْ على الأسماء الجديدة، دون أن تفسِّر له، لم يتوقف كثيرًا أمام الأمر الذي أرجعه للضربات الموجعة التي تتعرَّض لها العائلة في الآونة الأخيرة.

تمثِّل تجارة الحبوب، خاصة الزراعة، المورد الرئيسي لاقتصاد العائلة، فبعد أن فقدت تجارة الجمال والعطور والبهارات خطوطها وطرقها الرئيسيَّة بين مصر والسودان خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، وتبعثر بعض من أفراد العائلة تبعًا لذلك في البلاد، كان على العائلة أن تواجه مأزقها وضائقتها المالية التي ضربتها من جراء سنوات الكساد العام، لذا خفضت تجارتها وتعاملت في تجارة الحبوب الزراعية، تشتريها بكميات كبيرة، تأتي من البندر، محملة داخل الصنادل الشراعية، ليتم تخزينها داخل البيت، لبيعها طوال العام لمزارعي القرية والقرى المجاورة.

رغم التحول والاقتراب من الزراعة، لم يفكر رجال العائلة مطلقًا بشراء أراض زراعية وتملكها، كانوا ينظرون للأمر على إنه يجرهم ناحية العبيد الذين كانوا يبيعونهم خلال السنوات البعيدة، كانت التجارة -من وجهة نظرهم- تؤمن لهم تميزًا ووضعًا اجتماعيًا عاليًا لا يمكن إنكاره، وهم بهذا الاعتقاد لا يمكنهم أن يعطوا للزمن الفرصة للنَّيل منهم، فمنذ بدأ يُديرُ لهم ظهره -الزمن - وهم يحاولون التمسُّك بالأشياء التي تحافظ على وضعهم ومكانتهم.

جاءت الكارثة هذه المرَّة، حين ضربت عاصفة ترابية قلوع الصندل المُحمَّل بالغلال، مما أدَّى إلى غرقه في عرض النيل، في هذا الوقت كان سعيد الكبير، قد رحل إلى السودان، وتوفي علي، موسى تواترت عنه أخبار بأنه فرَّ هاربًا من الجهادية، واتخذ طريقه نحو الشام، وإن كانت بعض الأخبار أكدت موته في الحرب، والبعض الآخر منها قال أنه فر باتجاه الغرب.

عقب واقعة الصندل واختفاء الأب لفترةٍ، عاد بعدها متصوفًا، زاهدًا، وغير راغبٍ بالبقاء داخل البيت، إن هي إلا أيام يقضيها معهم ثم ينصرف إلى أحد الموالد القريبة أو البعيدة، لقد صار درويشًا، يفكِّر بالموت كثيرًا، أكثر من اهتمامه بالحياة.

كان على الشبَّان الثلاثة المتبقِّين داخل حظيرة البيت، خليل وعثمان وإبراهيم، أن يتدبَّروا أمورهم ويواجهوا الحياة بصدورهم وأذرعهم، كان

عليهم القتال داخل هذه الظروف مع مصطفى، ابن عمهم وزوج أختهم، لكن الحياة لعبت لعبتها أيضًا، ورمت عصا التشتُّت بينهم، فما هي إلا أعوام قليلة حتى تفرقوا، واحدًا إثْرَ واحدٍ.

ولم يكن حظُّ أبناء السيِّدة أفضل من حظوظ أخوالهم وأجدادهم، رغم كل الاحتياطات التي حاولت السيدة جاهدةً أن تأخذها، وتبني حولها أسوارًا متينةً، إلا إن السهم المنطلق كان يمرُّ، ليؤدي واجبه، ويتركها وحدها، واحدةً وحيدة.

ثبَّت عيد الكشَّاف باتجاه الحائط فأنار الظلال التي كونها القمر، تساءل: من أين أبدأ؟ بيده قلَّبَ الجريدة الأخضر المشطوف، وبجوار الحائط ركن علب الألوان، متحيرًا أمام الحائط العريض، قال: في ليلةٍ بعيدةٍ كهذه وقف جدي يعاني نفس الحيرة. حيرته لم تدم طويلًا، عينه التقطت الرسمة القديمة لسيدةٍ فوق سجادة الصلاة، قال: سأخالف جدي، لن أبدأ بالكتابة. راح للرسمة وجرت يده فوق الخطوط الباهتة، كان يعين التلوين، يحددها أولًا ثم يعود لتثبيتها، بدأ بالسجادة والزخرفة التي تحتويها، والكتابة التي تحوط الأركان، ثم جسد السيدة، بدأ بالجزء المتربع فوق السَّجّادة والمسبحة، كانت يده تسرع كلما تقدم في العمل والوقت، قال: سبحان الله، حين كنت أُلوِّن حوائط بيتي، كانت يدي غير طبيعيةٍ كما الآن. وصل لوجه السيدة، والفرشاة –الجريدة– تجري بالألوان، لدرجة أنه كان يحسُّ بعدم قدرته على التحكم فيها.

الوجه القديم المنير رأى كأن فرشاته أضافت له بعض الخطوط والتجاعيد، فبدا حزينًا بشكلٍ ما. ارتجف حين داهمه هذا الخاطر، تراجع مبتعدًا عن الرَّسْمةِ ليتأكد من وساوسِه، كانت الملامح تحاول كبت حزن طويل ودفين، هرع ثانية ليعيد بعض البهجة للوجه، حاول محو بعض الخطوط ووضع أخرى، غير أن ما كان يرغب في محْوِه وتعديله، صار أكثر ثباتًا ووضوحًا، قال: لماذا؟

تراجع وجلس على الأرض مُشعِلًا سيجارته وملتقِطًا بعضًا من النَّسيم الخريفيِّ الذي يغمرُ السَّاحةَ، التقطت أذناه صوت الراديو الذي يبثُّ قراءة للقرآن الكريم، كان الشيخ "رفعت" الذي يعشقُ تلاوته، حاول تبين الآيات، إلا أن اضطرابه وبُعد الصوت القادم من الداخل، بالتحديد من فوق سرير السيدة، لم يمكناه من تحديدها.

أين يكمن الخطأ؟ تساءل مُحَدِّثًا نفسه: في حالاتٍ مشابهةٍ تغلبني هواجسي، لكنِّي الآن، فقط أعيدُ رسم الصُّورة القديمة. مدَّ يده مشيرًا إليها، لكن ما الذي حدث، أهي الصورة التي تتحكم في إظهار ذاتها كيف تشاء، أم هي معايشتي لها ولحزنها الذي بات مسيطرًا عليها؟ رغم قوَّتها التي تحاول أن تدّعيها لتداري بها ضعفها وحاجتها للحماية والتعاطف!

تنبه على لسعِ السيجارة بين أصابعه، فداسها في التراب، وقام واقفًا، وقال: على أيِّة حالٍ يجب أن أكمل.

هدأة الليل والنَّسيم الخريفيِّ أدخلا السيدة في النَّوم مباشَرة، كل شيءٍ ساكن حولها، حتى دواجنها هجعت دونما صوت، ما يتردد في المكان نسمات الهواء الرطبة التي تعلو وتهبط بقراءة الشيخ رفعت كأنما تنقيها من أثقال حاولت التعلق بها، ببساطةٍ واضحةٍ كانت روح السيدة تصفو، وترتفع محلقة.

نقل عيد السَّقَّالة إلى الناحية الأخرى من الحائط، محاولًا إسقاط مسألة الصورة بعيدًا عن تفكيره، لكن ما تزال الحيرة القديمة للجدِّ الأكبر تسيطرُ عليه. بعد أن نقل السَّقالة، تساءل: ماذا أرسم؟ رصَّ عُلبَ الألوان أمامه، وفرشاته بيده، غير أنَّه لا يعرف في أيِّ لونٍ يغمسها، وأيِّ خطٍّ سيخطه، قال جده ذات مرةٍ معلقًا على أدائه فوق حوائط البيت للمرة الأولي: أني أرى الخطوط ترتسم قائمة أمامي.

راح ينظر للحائط متأملًا، ومنتظرًا ظهور الخطوط.

- يا أمي.. يا أمي.

صوت سعيدٍ، قالت ثم انتظرتْ حتى تردَّد النِّداء مرةً أخرى، تأكدتْ أنه صوته، فتحتْ عينيها، رأتْ الوجه المبتسم والذي يُخفي قلقًا كبيرًا خلف الابتسامة التي يحاول إظهارها، قال: تأخَّرت يا أمي.. الكلُّ في انتظارك. تنبهت لما حولها، وجدت البيت غارقًا في أضواءَ ملونةٍ، وغناءٍ شجيٍّ ينبعث آتيًا من عند النخلة، نهضت، ووجدت واحدةً من بناتها تلبسها ثوبها الأسود القطيفة الغالي، ارتدته فوق جلبابها الحرير الأخضر، والذي أتى به سعيد لما كان ينوي الزواج، قامت وخرجت إلى حوش البيت، كانوا كلهم بانتظارها؛ جدتها، والدها، والدتها، إخوتها الرجال، مصطفى زوجها وابن عمها، أولادها، وسعيد يقودها من يدها، جميعهم واقفون بجوار النَّخلة، وجاءها الغناء متسائلًا: على فين يا حاجة يا أم توب قطيفة؟ رأت لسانها يجيب مغنيًا: رايحة أزور النَّبي والكعبة الشريفة.

لم يدم تأمُّله طويلًا، سرعان ما رأى خطوط النَّخلة تتحدَّدُ أمامه، مدَّ يده إلى أحد الألوان وأخذ يرسمُ، نخلة أصلها ثابت، ورأسها يتطاول إلى الأعالي، تحتها وحولها خلق كثير، تغلب عليهم البهجة والسرور، وكأنَّما صوت غناءٍ يتحدَّر إلى سمعه، ويده تعمل بسرعة لم يعهدها.

من الباب خرجت وسط الغناء الدَّائر، الدَّواب واقفةٌ في الانتظار ، تقدمت باتجاه مهرتها التي يمسكها رجل عجوز، حين اقتربت، أخذ يدها من يد سعيد الذي كان ينظر للشيخ بنظرة مليئة بالغضب والحنق وإن كانت الشفقة تتخللها أحيانًا، حاولت أن تستعلم عن الشيخ، لكنه تقدم وعدل السرج وساعدها على الركوب، ثم ضرب كفل المهرة التي انطلقت وسط الزغاريد المتصاعدة.

رسم مهرةً تركبها السيدة تهمُّ بالحركة مخلفةً ورائها بقليلٍ شيخًا كبيرًا يجلِّله حزنٌ غامضٌ، حاول التوقُّف، ليتمعَّن في هذا الحُزن النَّبيل الذي يُسيطر على رسومه منذ أوَّل الليل، رغم البهاء الذي يستشعره داخله، والذي يحيط برسومه من الخارج ولكنه لا يخترقها، لم يقدر على التوقُّف، وجد يده ترسم بعد مساحة قليلة، السيَّدة فوق بعيرٍ يعبر الصحراء، ثمَّ السيدة في باخرةٍ تجتاز البحرَ، ثم السَّيدة فوقَ بعيرٍ للمرَّة الثانية تعبرُ واديًا، تبدو في نهايته مئذنةٌ عالية.

كل أحبَّتِهَا من حولها، وهي بينهم، بعد أن خلعتْ الثوب الأسود الثقيل وارتدتْ الثَّوب الأبيض الذي أعدَّته منذُ زمنٍ طويلٍ لرحلاتها إلى الحجِّ والتي لم تتم، كانت سعيدةً وجزلةً، لكن على نحوٍ مُبهمٍ، كان الكدر يهاجمها ويضعُ أمام وجهها وجه الشَّيخ العجوز، كانتْ تحسُّ بألمٍ غامضٍ يعتصرُ الشَّيخ ويجعل نظراتِ الشَّفقة من عين ولدها تطلُّ. تنظر إلى أحبتها، سعداء، وجوههم تُعبِّرُ عن نشوةٍ فارقتهم منذُ زمنٍ طويلٍ، حتى سعيدُ المُكفهرُّ دائمًا، بدا منبسطًا لكأنَّ حمله القديم بأن يتجمعوا من شتاتهم قد تحقَّقَ.

خطَّ خطوطًا لحرمٍ واسعٍ تتوسَّطه الكعبة المشرفة بكسوتها السوداء البهيَّة، وحزام أبيض يتوسطها تغمره الكتابة: "ولله على الناس حجُّ البيت من استطاع إليه سبيلًا". وطيورٌ تُحلِّق في فضاء الحرم، طيورٌ كثيرةٌ ومتداخلةٌ، لم يستغرب حين وجد يده ترسم بينها دواجن السيدة، ترفرفُ فوق الرُّؤوس الكثيرة المتداخلة، إلا أن السيدة تبدو واضحةً، تطوف وسط هذه الجموع الغفيرة، من بين هذه الجموع بدا وجه العجوز واضحًا وهو يرقبُ السيدة التي أخذت تُدقِّق في الوجه الوادع، ورويدًا أخذت في التعرُّف عليهِ، لما رأتْهُ يتبدَّل ويأخذ وجوه والدها، إخوتها، زوجها، ابنها سعيد، إنه..

الله أكبر.. الله أكبر.. صوت آذان الفجر يتصاعد شجيًا نديًّا إلى السماء، قالت السيدة فوق سريرها: إنه جدِّي، عبد الله الرَّحال، نعم إنه، لكن هل كنت أحلم، أم تراني كنت أتخيل ما ترسمه خطوط الولد عيد فوق حوائط البيت الذي بناه الجد الأكبر؟ حاولَتْ القيام، وجدتْ نفسها مُجهدةً، متعبةً.

الله أكبر.. الله أكبر.. صوت أذان الفجر يتصاعد شجيًا نديًا إلى السماء، تنبَّهَ عيد إلى الحُمَّى التي تجتاح بدنه، قال: أنا متعبٌ، وفي حاجةٍ إلى الرَّاحة. تطلَّع إلى الرسوم التي يظهرها ضوء الكشَّاف، قال: هل رسمت كل هذه الرسوم هذه الليلة، يبدو أني أحلم، أو أنِّي أرى حلم السيدة النائمة بالداخل؟ سار متجهًا ناحية بيته وهو يُحدِّث نفسه بالنوم لعدة أيام.

تحاملت السيدة حتى قامت، تسنَّدَتْ على عُكَّازها وخرجَتْ إلى الحوش، رأت كأنما البيت مضاء، وأصوات الغناء والابتهال والأنين تتردد واضحةً بين جَنباتِه، بصَّتْ حولها، رأتْ النَّخلةَ قائمةً في سُرَّةِ البيت، تتراقصُ حولها أطيافٌ، بدتْ واضحةً، تردد الأصوات التي أخذت في التمايُزِ والوضوح والارتفاع وهي تتقدَّم نحوها.

كتابُ الرِّجَالِ

- مفيش راجل هنا؟!

التَّحدي الوقحُ هو الذي يتحدث، ذلك ما أدركته عقولنا بوضوحٍ وثباتٍ كاملينِ، لم يكن هناك شك في أنَّ موقفنا صار حرجًا، وكرامتنا عُرضةً للتمرُّغِ في الوحلِ، و ذلك بسببٍ غير معلومٍ، فالشابُّ الذي ظهر فجأةً وكأنَّه نبت من خلف التِّلال في غفلةٍ من الجميع، على الأقلِّ لا نعرف دافعَهُ لمثل هذا الفعل.

الشابُّ الذي بدا حييًّا في كلامه وهو يزحَف مقتربًا من حوافِّ الدائرة، لم يلفت انتباهنا، قلنا: غريبٌ، كأيِّ غريبٍ ينزلُ بساحتنا أيام الأعياد، وجهه يحمل سمتَ الغُرَباء، نظراته غير المستقرَّة، لهجته المتردِّدَة التي تتحسس وقع الكلمات قبل النطق بها. كل هذا جعلنا نطمئن لكونه غريبًا وعابرًا، وهكذا الحال دومًا، كل غريبٍ عابرٍ، لا يستقرُّ إلا لوقتٍ، يأكل فيه من زادنا، و يشربُ من مائنا، ثمَّ يمضى لحال سبيله، و لسانهِ يروِّجُ لكرمنا الفائق، وحسن استقبالنا للغرباء.

في ناحية الشباب وقف يتابع اللعبة بانتباه شديد، وما الضَّير في ذلك؟ كلنا يفعل، وإلا ما معنى وجودنا هنا؟ والآن؛ لعبة التَّحطيب، العصا والرجل، الرجولة وليونة الحركة، حُسْن الكرِّ وتدبير الفرار. يمسك الرجل بالنبوت ويرفعه عاليًا، شامخًا، وينفضه نفضًا، ليسمح لكمِّه العريض بالانزلاق على زند ذراعه، كي تبين قوة العضلة وحجمها، البعض يجعل عضلات ذراعه ترقص، وهو يقوم بهز العصا، يختبرها، يجربها من طرف،

ثم يطوحها في الهواء ويلتقطها من طرفها الآخر، يريد لقبضته عليها أن تكون قويةٌ محكمةٌ، كي لا تخذله عند الحاجة؛ يدور حول الحلقة، حجلًا برجلٍ ونصف، يقفز هنا، وينطُّ هناك، يستدير بسرعةٍ وخفَّةٍ، يستعرض مهارة الجسد وقدر مطاوعته لصاحبه؛ ثم ينطقها قويةً وممطوطةً من زمام شفتيه: "ســـو... ســـو". إيذانًا ببدء اللعبة. كلنا خبر تلك الحركات و جربها، لكن مواجهة الخصم تخصُّ كل فردٍ بمعرفته، كل واحدٍ وله طريقته، وهذا ما يفرق بين فارسٍ وآخر، كلٌ يشقُّ دروب الحياة حسب فهمه؛ كانت العمة تقول: كل ابن آدم و له دقَّةٌ في رأسه، يديرها بكيفه. المهمُّ هو الفوز، وانتزاع الآهات من جمهور الحلقة المتحفز لاختطاف عصا المهزوم؛ في كثيرٍ من الأحيان يتنازل اللاعبان عن عصييهما لزوجٍ آخر من اللاعبين، فالغرض مشاركة أكبر قدر، وإطلاق المتعة داخل كل النفوس.

حين تقدَّم الغريبُ وأخذ العصا من أحد اللاعبين، رمقناه في خفَّةٍ وتعجُّلٍ، بدا لنا بجسده الطويل ورأسه العارية، هزيلًا نوعًا ما، وإن كان واضحًا أنه يعتني بملابسه، فجلبابه الأبيض، وارد الخليج، مكويٌ بطريقةٍ لافتةٍ، الأساور محكمة الغلق بأزرارٍ تبدو كالمذهبة، وطرف قلمٍ يتدلَّى من جيبه العلوي، قلنا: غريبٌ وهزيلٌ، وربابة مدارس، سيأخذ دوره ويمضي؛ ثم ما لعيال المدارس ولعبة العصا، ألا يكفيهم أنهم لا يجيدون شيئًا سوى التسكُّع ومناطحة الكبار وتسفيه كلامهم؟ على العموم هو غريبٌ ولن يصمد، فلاعبنا الذي يلاقيه جيدٌ، لن يحتمل الغريب منازلته. تبادلنا الثرثرة المعتادة، وأشعلنا السجائر، وتلفتنا حولنا، فالدور لا يستحق الفرجة، هو

تسديد خانة في باب الضيافة، واجب فرضته علينا الحلقة بوجودها هنا في سفح الوليِّ الفقير، علينا تحمل الغرباء حتى يرحلوا، دون اعتراضٍ، أو تبرُّمٍ.

"ســو.. ســو" صرخ بها لاعبنا، ولم يردها الغريب، أو خرجت منه خائفة وضعيفة، فلم تصل مسامعنا، رفع لاعبنا عصاه، وحجل دائرًا حول الحلقة، أمَّا الغريب لم يرفع العصا بل جرَّها خلفه على الأرض، كأنما يخط حدود دائرة اللعب، لم يحجل برجل ونصف، ولم يهرول حول الحلقة، بل سار متمهلًا، وجهه جامدٌ لا ينمُّ عن شيء، خطوتان وتلاقت العصي في دويٍّ نعرفه، نظرنا إلى عصا الغريب، لم ترتجف، كانت ثابتةٌ، وفتح بابه، قلنا: أهبل وعبيط. فقد بان جانبه الأيمن مكشوفًا لخصمه، الذي اغتنم الفرصة، وسدَّد ضربةً محكمةً، لكن الغريب -ويا للعجب- زاغ منها بجسده، بطريقةٍ جعلتنا نشهق، وفي نفس اللحظة كانت عصاه قد أطارت عمامة لاعبنا، فانطلقت الضحكات والقهقهات.

كان علينا أن ننتبه، فالفعلة التي فعلها الغريب، لم تكن تعني أنه قد فاز وكفى، بل تعني إهانة الطرف الثاني، فقد كان بمقدوره أن يكتفي بلمس العمامة بطرف عصاه حتى يعتبر فائزًا، لكن أن يخلعها من فوق رأس صاحبها، ويرميها على الأرض، متمرغةً في التراب الناعم الذي تدوسه الأقدام! التقطت حواسنا الإهانة، لكن قلنا: ربما ولدٌ أرعنَ، لا يعرف القواعد، ولا يراعي الحدود، فهكذا طبيعة عيال هذه الأيام، وكأن زمننا قد

مضى وانقضت قواعده وحدوده، وعليهم أن يؤسسوا قواعدهم على أنقاض قواعدنا. وهنا لاح رأي جدير بالاعتبار، وهو أن الغريب متمكنٌ من اللعبة، فالحركة التي قام بها، رغم الرعونة، لا يأتيها إلا متمرس، فاهم و مجرِّبٌ، وعلينا الاحتراز.

نزل لاعبان إلي أرض الحلقة، وبسمةٌ هادئةٌ وواثقةٌ كستْ وجه الغريب، بدت لنا كريهة، ومتشفية، خاصة وقد كان اللاعب-المهزوم- يحاول جمع عمامته من على الأرض، بعد أن قذف عصاه إلى أحد الداخلين، اللاعب الآخر اتجه نحو الغريب وهو يمد يده كي يأخذ منه العصا، لكن الغريب رفع يده مبتعدًا، بما يعني أنه سيستمر في اللعب. صمتت الحلقة، فهذا التصرف يخرج اللعبة من كونها نوعًا من التسلية البهيجة لأيام العيد، ويدخلها في إطارات أخرى، كنا قد تجنبناها منذ زمن بعيد.

عصرية عيد الأضحى، والشمس تجري لمستقرها في الغروب، لتكتسي الساحة المنبسطة أمام مقام الولي الفقير بالظل، كان بعض الأطفال يلعبون بالكرة، بعيدًا عن حلقة التحطيب، وإن كانت حماسهم وزياطهم يصمان الآذان، وخلف التلال والكثبان الرملية اختفت بعض تجمُّعات الشباب، يلعبون القمار، النرد، والثلاث ورقات، وسيف الكوتشينة. بينما هنا الصمت يخيِّمُ على الحلقة، عقب إشارة الشاب الغريب، كسر اللاعب الجديد هالة الصمت بـ:"ســو.. ســو". و هذه المرة أيضًا لم نسمع رد الغريب، كان واضحًا إنه لا ينطقها، فقط يجر عصاه خلفه وعينه جالسة على

الخصم، ترقب حركاته دون أن تطرف، غير منشغلةٍ بالضجيج الذي دبَّ حول الحلقة، فقط تركز على حركات الخصم، بالتحديد يده القابضة على النبوت.

هجم اللاعبان، وتبادلا الضربات، كان لاعبنا قديرًا، لديه من المهارات ما تجعله قادرًا على إنهاء المبارزة لصالحه في أقرب وقت، كان يتحرك يمينًا وشمالًا بسرعةٍ وخفَّةٍ كي يرهق الغريب ويفقده التركيز، وعندها يكون سهلًا الإجهاز عليه، تبسمنا وقلنا: جاءك الموت. كان الغريب يرد هجمات لاعبنا ببساطةٍ وحزمٍ، كان موقفه الدفاع الدائم، وهذا ما يرمي إليه لاعبنا؛ إنهاك الخصم تمامًا. وتقدم لإنهاء المباراة التي طالت، كانت حركته قائمة على أن يمس الغريب عند خصره، قام بالتمويه بجسده ناحية اليمين، تاركًا جانبه الأيسر مكشوفًا، كي يطمع الغريب فيه، ثم.. وطارت العصا من يد لاعبنا، وهو يحاول كتم آهةٍ أفلتت منه.

بُهت الجميع، وكأنما باضت الطيور فوق رؤوسنا، فما حدث لا يمكن تصديقه، كانت ضربة الغريب، ضربةً عاديةً لرد الهجوم الكاسح الذي يناور به لاعبنا، نعم قد تكون ضربة خائفٍ أيقن بالهزيمة القادمة على بُعد ضربةٍ، لكن العصا طارت من لاعبنا، وأصبح هدفًا مثاليًا لعصا الغريب، لكن الغريب اكتفى بإنزال عصاه إلى الأرض وجرها خلفه وهو يبتعد من أمام لاعبنا القابض على يده، وينظر لها بذهول. فيما بعد سيخبر بأن عصا الغريب طالت أصابع يده القابضة على العصا، وسيحتج بأن هذا الفعل

محرَّمٌ، فيرد عليه أحد الجالسين القرفصاء: على الفارس أن يحمي كل جزء من جسده. هذه الثرثرة لم تكن لتعنينا، قدر الإهانة التي يتعمد هذا الشاب الغريب أن يوجهها لنا، فقد كان لزامًا عليه أن يمس الخصم بعصاه، ثم يبتعد، لكن هكذا يستدير ويجر العصا خلفه، وكأنه لم يكن يلاعب أحدًا، أيُّ إهانةٍ أكبر؟!

أصبح الموقف مأزومًا، فبعد خسارة لاعبين، أحدهم على الأقل جيد ويمكن الاعتماد عليه في المواقف الحرجة، ليس هزيمتهما، ولكن بطريقة مهينةٍ، كل هذا ألهب حماس الجالسين حول الحلقة لوضع نهايةٍ حاسمةٍ لذلك الغريب الذي لا نعرف من أين طلع لنا؟ ولا إلى أين يريد جر الحلقة، هذه التي حافظنا على بقائها بيضاء ونظيفة طوال سنواتٍ عديدةٍ؟ ذلك ما تعاهدنا عليه عندما أعدنا افتتاحها، قلنا لن نسمح للمشاعر الهمجية من الاقتراب، لأننا لو غضضنا الطرف عنها فستجرنا إلى بركة الدم التي ردمناها وكفينا ماجورًا فوقها، لكن مرجل الإهانة الذي أوقده الغريب أخذ في إنضاج روح الكراهية والتحدي وتثبيتها داخل النفوس، الآن زئير الرجال يطالب برد الكرامة التي يمرغها الغريب على أرض الساحة.

على مر السنوات تتجمع البلدان المجاورة لنا، في صبيحة اليوم التالي للعيد، يتبركون بالولي الفقير، وتتحول ساحته إلى سوق كبير، تجد الباعة من كل صنف ولون، حتى تجار البهائم والغلال، ومشايخ الطرق، واللصوص، والعيال والقمار، ورجال ونساء بملابس سوداء، وبنات

بملابس ملونة، هو موسم للتزاور، حتى الموتى ساكنو المقابر، هذا موسمهم، موسمٌ للتعارف والخطبة خارج البلدة، وساحة خاصة لمرماح الخيل، تتسابق الخيل فيه مرتان، واحدة عند الضحى، والثانية عند العصر، وهنا تحت أقدام الولي الفقير تنتصب حلقة التحطيب، والتي على جانبها يقف عوض الله الحلبي بربابته، ومعه اثنان من عائلته، واحد بالمزمار، والآخر يوقع على نقارة كبيرة، على هدى من الأنغام يتم اللعب الذي يقصده فوارس اللعبة من كل البلدان؛ أنهد كل هذا من أجل غريب أرعن جاء ليحرجنا بقلب ساحتنا.

الفضيحة جاهزة الآن للانطلاق، فعند الغد لن نقدر على رفع رؤوسنا في وجوه ضيوفنا، سيقولون حين يرونه: نعم هو غريب، لا نعرفه، لكنه حتة عيل. ويبدون اندهاشهم، ثم يتساءلون بخبثٍ: من نازله؟ ولحظتها يأخذون في التهوين من قدرات لاعبينا، واستهتارنا بالغريب، العيل، الذي مرَّغ كرامتنا التحطيبية في رمل الساحة أمام الولي الفقير الشاهد علينا.

لاعبان آخران انهزما، والغريب يجر عصاه خلفه وبسمته الباردة تكسو ملامحه، وشمس النهار تولى هاربة، ولم يكن هناك من مفر من البحث عن عثمان العجبان.

كنا لَمَّةً في ديوان الحاج؛ مصطفى الرحال، العجبان، البعض يشرب الشاي، والبعض قد فرغ، ودخان السجائر متصاعدٌ في براح الديوان، بينما العم عثمان يسحب أنفاس الشيشة وبصره يتنقل بيننا، نحن أبناء عائلة الرحال، الذين جاءوا من المنافي البعيدة والقريبة، من الإسكندرية، وأسوان، وقوص، والقاهرة، والبحر الأحمر، والدلتا. كان تجمعًا نادر الحدوث، فقد كنا قد تعاهدنا ونحن في حصيرة العمة، أن جعل هذا اللقاء سنويًا على الأقل، يوم عيد الأضحى، فرد من كل بيت، أو من يقدر على الحضور، وبعد البيت الكبير، بيت الجد الأول، بيت العمة، كما نطلق عليه الآن، لم يبق بالبلدة سوى العم عثمان، وابنته زينب، امرأة سعيد، كما نعدها، وهي كانت تصر على ذلك.

- يا عم. قال محمد الإسكندرانى. سنذهب لزيارة قبر العمة. تبسم العم، الكبير الوحيد الباقي من إخوته، وأخرج من منخاريه دخانًا خفيفًا قبل أن يقول: بارك الله فيكم. ثم وضع المبسم بجواره على الدكَّة، وقال: الله يرحمها، لم تخط بقدمها ناحية المقابر أبدًا، لم تسِرْ في جنازة، أو تذهب لزيارة واحدٍ من أمواتها. لا تحسبوا ذلك قساوة قلب، كانت تقول: التراب إلى التراب يذهب، أما الأرواح فهي باقية هنا حولي أناجيها وتكلمني. الله يرحمها.

ساد صمت جليل، لم يقطعه سوى هرولة خطواتٍ لغلامٍ، جاء مندفعًا من باب الديوان، دون أن يدقه، والباب على أيّة حالٍ مفتوحٌ، فاليوم عيدٌ،

والأبواب كلها مشرعةٌ، فوجئ الغلام بالحشد الصامت، فأدركه الصمت فسكن، وإن ظلت عينه معلقة بالعم عثمان، الذي أشار إليه أن اقترب. ولما دنا، سأله عمَّ يريد؟! والغلام كي يستريح ألقى الكلام بلهوجةٍ شديدةٍ، دفعةً واحدةً، فلم يفهم واحد منا ماذا يقصد! فما كان من العم عثمان أن قال له: اذهب، سأتي خلفك. ولما رأى الحيرة تحاصره من عيوننا، قال: اذهبوا لمشواركم. قال واحد منا: ألن تأتي معنا؟ تشاغل العم عثمان بالبحث عن عصاه، مع أنها مركونة بجواره على طرف الدكة، قال: لديَّ مشوار.. سنتقابل بعد المغرب، في البيت الكبير. ولما وجد وجوهنا مستفهمة، أكمل وهو يخطو خارجًا: زينب هناك منذ الصباح، تحضِّر للوليمة. وخطا بطوله الفارع وهو يعدل من وضع الشَّال العريض فوق كتفه، والنبوت الغليظ في يده، كأنما يحمل عود كبريت، توقف، قال: سأدعو بعض المعارف. ثم أشار لي: إذا قابلتم عيد الرسام في طريقكم، قل له ألا يتأخر.. على العموم هو عنده خبر. ثم واصل سيره المتمهل والذي يليق بعجوز في سنه، تبعناه ببطءٍ، ولمَّا وصل للباب، قال: يا بني.. لا تخرجوا سويًا.. وسيروا بشوارع مختلفةٍ. وتبسم ضاحكًا وهو يكمل: لا تقلقوا.. كل الدروب تقود إلى هناك.. إلى المقابر. وخرج من الباب.

الموقف زاد سوءًا، لاعبونا يتساقطون تباعًا، والغريب بنفس وقاحته يجرجر العصا خلفه، وبسمةٌ آخذةٌ في النمو تغمر ملامحه؛ بعض اللاعبين تشكَّى من طريقة لعب الغريب، وكيف أنه حريصٌ على إصابة أصابعهم، أو أقدامهم بعصاه، بطرق غير مسموح بها في اللعب، البعض صرخ على حواف الحلقة: إنه يغش. فأسكته من يجاوره: ما دام يغش.. غشوا.. المهم أن يخرج مهزومًا.

كان الحوار غاضبًا، لكنه لم يغير من الأحداث المؤسفة التي تجرى أمام أعيننا، فزهوتنا التحطيبية على المحك الآن، ما الذي أَخَّر عثمان؟ الولد قال: قادم خلفي. يبدو أن الرجل صار عجوزًا، إن لم يفلح هو الآخر، ضاعت هيبتنا تمامًا، لكن الدهن في العتاقي، وإلا صار علينا أن نغلق حلقتنا بالضبة والمفتاح وإلى الأبد، وساعتها هل سنقدر على ملاقاة الناس بالشوارع والأسواق والمجالس؟ بل الأدهى كيف سنستطيع النظر في وجوه أطفالنا وعيون نسائنا دون أن نشعر بالخزي؟ يا عثمان.

تزحزحت الحلقة كي يتقدم، ويرى حالنا الذي لا يسرّ صديقًا ولا حبيبًا، والشمس كمن هي متواطئة مع الغريب تسارع بالغروب والتخفِّي وراء الجبل الغربي، مبيتةٌ على هزيمتنا الفادحة، في هذه اللحظة كان الغريب في طريقه للإجهاز على لاعبنا بضربةٍ حاسمةٍ، تصاعدت معها آهات الغضب العاجز، بسرعة قام أحد اللاعبين بخطف عصا المهزوم، كان هذا اللاعب قد هزم من قبل، جر الغريب عصاه إلى قلب الحلقة، وحين لمح

اللاعب رفع يده عاليًا مشيرًا برفض اللعب مع لاعب سبق و هزمه. زمجرت الرجال وأمرت اللاعب بالخروج، والغريب استدار مواجهًا عثمان الواقف مستندًا على عصاه، وقد عقد كفيه على رأس النبوت، توقف الغريب لمرآه، ثم رفع عصاه، لأول مرة يرفع العصا، ببطءٍ، حتى أصبحت ذراعه في مستوى صدره، وأشار بعصاه مباشرةً إلى عثمان.

وقف الجميع وسكنوا، والعصا مشرعةٌ بوجه عثمان، الذي تبسم برفقٍ دون أن يفكَّ يده من رأس النبوت، بطرف عينه يرمق الجميع، وظلل أذان المغرب ساحة الولي الفقير، تقدم عثمان من الغريب كاسرًا حاجز الصمت وهو يقول: أهلًا بود العم.

الغريب تراجع خطوة، وإن ظلت عصاه مشرعة في وجه عثمان، قلنا: وأيضًا قليل أدب. بل زاد بلة الطين، قال موجهًا كلامه لعثمان: ارفع عصاك. ضحك العجبان عثمان: المغرب.. غدًا.. ألا تسمع.. الصباح رباح.. الآن أنت ضيفي.. هيا بنا نلحق المغرب. واستدار خارجًا من الحلقة.

ببطءٍ نزلت عصا الغريب، وتحركت قدماه خلف الحاج عثمان، الحلقة أفسحت لهما، وإن لم تفقه ما جرى! قلنا لعل عثمان يعرفه، أو لعله الغريب هو الذي يعرف الحاج ويريد اللعب معه؛ لكن البعض زاد: أهو ثأر قديم؟ لكن ما ذنب حلقتنا حتى تتعرض للإهانة، وهل انتهى الموقف بهذه الطريقة؟ أم أن الحال غدًا، سيكون فضيحةً وجرسةً أمام البشر أجمعين؟

حين دخلنا المقابر، كما أخبرنا العم عثمان، كانت الكثير من النسوة اللابسات الأسود متناثرات حول بعض القبور، وكانت مقبرة العائلة، وحيدة بلا زائرٍ، لكننا لمحنا أثر ماءٍ مرشوش فوق الأرضية، وجريد أخضر فوق قبر العمة. سألني محمد الإسكندراني عن هدف العم من تفريقنا بالشوارع المختلفة. قلت دون أن أهتم: لغرضٍ في نفسه. بل الحسد يا ابن العم. علق مجاهد البشاري: نحن أشبه بأولاد يعقوب. أفلتت الضحكات رغم جلال الموقف، كان الظل المائل من الجبل قد كسا المقابر، ويتابع رمحه باتجاه الشرق، حيث النخيل الذي تداعب جريده صُفْرة الشمس ونسمات لطفن من اختناق الجو. وقفنا لقراءة الفاتحة وترديد بعض الأدعية على روح العمة، وأرواح من سبقوها. كنا خليطًا عجيبًا من الملابس والألوان، جينز وقمصانٌ بيضاء وملونةٌ وجلاليب طرق تفصيلها متباينة، بين الواسعة بأكمامٍ عريضة، والضيقة بأكمامٍ تنتهي بأساور مغلقةٍ، ألوان البشرة والوجوه تتدرج ما بين السمرة الداكنة إلى البياض المشرب بالحمرة، أغلب الوجوه تنزُّ بالعرق بعد شواء الظهيرة المتقد.

السلام عليكم. قالها عابرٌ في الطريق المجاور للمقابر. رددنا عليه ونحن نتطلع ناحيته، لم يتعرف عليه واحدٌ منا، كان يسير بسرعة كأنما ليلحق بأمرٍ هامٍ، قال محمد الإسكندراني معلقًا: كيف يحتملون كل هذه الملابس الثقيلة فوق أبدانهم ورؤوسهم؟ رد البشاري ابن الجبال: كل بلدٍ وسلوها يا ابن اليونانية! كشَّر محمد وتحرك نحو البشاري، ونذر ملاسنة على وشك الهبوب كهربت الجو: مالها اليونانية؟ على الأقل أحسن من الحجر الـ.. تدخل

القوصي: هل هذا وقته؟ وتبسم البعض، والبعض الآخر جلس على شواهد القبور القريبة وهو يشعل السجائر، ومرت سيدة فصمتنا، وقفت وهي تقول: الله يرحمها. وأشارت إلي قبر العمة. تعيشوا وتفتكروا.. إنما أنتو عيال مين؟ وكنت الأقرب منها، أخذت أوضح لها: هذا ابن فلان وهذا.. لكنها قاطعتني: أنت ود فلانة. صمت وأنا أهز رأسي أي نعم. فأكملت: كيف حال أمك؟ من زمان رجلها ما خطت البلد. قلت: بخير. وأردت أن أشرح لها تعب المفاصل الذي حل بأمي وجعل حركتها قليلة، لكنها غادرتني قبل أن أكمل، سارت قليلًا ثم استدارت: ابقى سلم عليها. قلت: يوصل. بعد لحظة تذكرت أني لا أعرفها، لكنها كانت ابتعدت.

"هذا قبر الحاجة فاطمة الرحال، توفيت..."، مكتوبة بخطٍ جميلٍ على شاهد القبر المغروز وسط بناء من اللبن، والذي طلى بالجير الأبيض، يبدو الطلاء حديثًا، كأنما تمَّ بالأمس، بينما بدا الخط المتماوج بارزًا، يشبه غصن جميز بنتواءته المحببة، لم أشكُّ بأنَّها كتابة عيد، رحت أتأمل الزخارف والألوان وميل الخط ودورانه، لدرجة جعلتني أتخيله كقبةٍ تماثل بناء القبر ذاته. كان اللوح من الجص الأبيض، طُليت خلفيته بالسماوي، أما الخط بدا عصيًا على التصنيف، لكنه ينبئ عن مهارة العارف لصنعته المُتقن لفنونها، دقة الحرفة تجعله لا يفتعل أو ينفعل، فقط يترك ما بداخله يتحرك، وينتظر النتائج. ذات مرةٍ قال لي عيد: مرات كثيرة أجد الخط عصيًا، ويدي لا تطاوعني، مع أنني سأكتب الكلمات التي اعتدت كتابتها من قبل مئات المرات، وسأكتبها في قابل الأيام، كما ترى أنا لا أخترع الكلام، بل أخترع

الخطوط والألوان. سألته وقد هزَّني الحماس: طيب ما العمل والحال هكذا؟ قال: أحيانًا كثيرةً أفكر بعلاقتي بمن أكتب له، الميت يعني، تصور ماذا أجد؟ لن تصدق! علاقة عادية، باردة، غير ودودةٍ، لحظتها عليّ أن أوظِّف خبرتي فقط، دون أيِّ ادِّعاءٍ أو حماسٍ. صمت وقد حطت عليه مسحةٌ من الكآبة، فصمتُ احترامًا لحزنه، فأكمل: المحزن أن هذه الكتابة تخرج باهتةً باردةً، حين أراها بعد ذلك أدير وجهي بسرعةٍ للناحية الأخرى. قلت محاولًا التَّخفيف من حِدَّة الحزن: يعني من يريد أن يعرف علاقتك بأهل البلد، عليه تتبع رسومك وكتاباتك فوق الحوائط وشواهد القبور؟!

- هيه، أين رحت؟ لكزني محمد الاسكندراني، انتبهت وأنا أشير لشاهد القبر، تلفت حولي فرأت المجموعة قد غادرت، ولم يبق سوانا. قال محمد: على حدِّ علمي، أن عمتك لم تحج. تبسمت وأنا أتحرك خارجًا بين صفوف المقابر، محاذرًا أن تطأ قدمي قبرًا، دون قصدٍ مني.

لما خرجنا وقف محمد وأشعل سيجارةً وأعطاني واحدة: هل يمكن المعيشة هنا؟ كانت ضربة لم أتوقعها، لكني قبل أن أنطق، وصل لسمعنا أذان المغرب، فسرنا صامتين باتجاه البيت الكبير.

صوت الشيخ "حسين" يأتي رائقًا وهادئًا، متسللًا من كوَّة الحائط، وكمن لُدغت هبت زينب من مقعدها أمام النار، غطت الحلة بعنفٍ، فأحدث الصوت دويًا، جعل عزيزة تهرع نحو المطبخ، عند الباب اصطدمتا، عزيزة تستفهم، وزينب تصرخ: سرقنا الوقت.

انتهينا من كل شيء. ردَّتْ عزيزة، وضحكت قبل أن تكمل: الخالق الناطق عمتك. أنت رايقة. قالت زينب وهي تخطو في الحوش الوسيع، اتجهت للديوان، ومن الباب ألقت نظرةً على الدِّكك بفرشها ومساندها، الحصر الملونة على الأرض مفروشة، وعند الرُّكن يقبع طست الغسيل بجواره إبريق الماء المليء، وعلى مسمار في الحائط علقت عدد من الفوط النظيفة. مرةً أخرى عادت للحوش، كان عيد قد دخل من الباب الكبير، وناحيته تتجه عزيزة، قال: مساء الخير عليكم. وناول عزيزة أعواد الذرة التي يحملها. بجفاء قالت زينب: لم يأت أحد بعد. تجاوز عيد الإهانة قائلًا: سألحق المغرب. تنهدت عزيزة وراحت بحملها ناحية الزريبة، حيث النعجة والخروف وما بقيَ من دواجن العمة، في نفس الوقت كانت زينب تخرج الفوانيس و الكلوب.

حين عادت عزيزة، كانت "حي على الفلاح" ترفرف فوقهما، وزينب منهمكةٌ في إشعال أحد الفوانيس، قالت عزيزة: البهائم صائمة.. لم تمس أكل الصباح. وجلست بجوار زينب، وراحت تشعل واحدًا: الظاهر إنها عارفة.. فاتت سنة. بلا كلام فارغ. قالت زينب وهي تنهض واقفة،

فعاجلتها عزيزة: لماذا تكرهينه؟ السؤال ثبت زينب للحظة، لكنها أخذت الفانوس وسارت به للديوان، وهناك علقته في واحدٍ من المعاليق المدلاة من السقف؛ كانت تتحرك بهمة امرأة تقترب من الثلاثين، وإن كان الكدر يظهرها أكبر من ذلك، عزيزة التي من دورها، وعندها بيتٌ و زوجٌ وعيالٌ تبدو أصبى منها.

بوسط الحوش وقفت عاقدةً ذراعيها حول خصرها، تتلفت حولها، تسترجع إن كان قد فاتها شيء، ومن المطبخ رجعت عزيزة بعد أن علقت فانوسًا هناك، الصلاة والسلام عليك، صوت الشيخ يبتهل، ونعجة العمة اندفعت خارجةً من الزريبة، ترمحُ باتجاه النخلة القائمة بسرَّة البيت، خلفها الخروف، وصار في البيت هرجٌ وزياط من الأصوات التي غطَّت على ابتهالات الشيخ، دون تفكير جرت عزيزة وتبعتها زينب. أنا متأكدة إن الباب كان مقفولًا، قالت عزيزة، كان النظام والنظافة التي حرصت عليهما زينب منذ الصباح عرضةً للتلف والإفساد، وهو ما جعلها تبرطمُ بالكلام الغامض، حول أرواحٍ وأصواتٍ عليها أن تنصرف الآن.

بجهد وطول مناهدةٍ استطاعتا صد حملة الهروب الكبير لسكان الزريبة، وإحكام غلق الباب، ليعود الهدوء والصمت لحوش البيت، نظرت زينب لما تعبت فيه من أول النهار، الكنس أولًا، ثم عندما انكسرت حدة الحرارة رشَّت الماء كي يسكن الغبار، قالت عزيزة: غيَّري هدومك قبل قدوم الناس. وبتحامُقٍ أهوج ردت زينب: وماله هذا الثوب؟ تبسمت عزيزة: يا

أختي.. كفاية رائحته.. من الطبخ والتراب طوال النهار. وبنفس درجة الغضب: مخبولة.. تريدينني أتزين؟ ضربتها عزيزة على كتفها بخفة: من جاء بسيرة الزينة.. قلنا الهدوم.. هؤلاء أولاد أعمامك. تبسمت زينب: يا سلام على مماحكة النسوان.

"طاخ.. طاخ"، خبط على الباب.

جرت عزيزة نحو المطبخ، أما زينب فقد جرت نحو غرفة العمة.

على جدار المدرسة القديمة ارتكنا، كانت لحظة غروب جديرة بالتأمل، فرغم التجمع العائلي، كانت تسيطر علينا مشاعر الغربة، كنا كتجمع لأغراب التقوا فجأة، ثم انتبهوا لقرابة تربطهم، لكن الهوة ظلت شاسعة، ببساطة كنا لا نعرف بعضنا البعض، نخطئ في الأسماء والأوصاف، رغم ما كان يعترينا من خجلٍ، وتبسم نحاول به دفع الجهل. بدت الهوُّة عصيةً على التخطي، تاريخ طويل من البعد والغربة، والحياة المختلفة، في أماكن متفرقة، لا يمكن التنكر لكل هذا الميراث، أو ادعاء أن الزمن هو الذي سيتكفل بحل هذه الأزمة، بل على العكس من ذلك، كنت أعتقد، وما أزال، أن الزمن تحديدًا هو السبب الرئيسي فيها، فمع تمدُّده تهمد الروابط و تتفكك، ويبهت التاريخ المشترك رويدًا حتى يأخذ طريقه للنسيان، ويكون من العبث محاولة الوقوف بوجه الزمن. قال محمد الإسكندراني: أنت واهمٌ.. بل يمكن لململة هذه العائلة. واستدار قبل أن يكمل: هذا كان حلمَ سعيد. قلت دون أن أنظر إليه: يبدو أن هذه العائلة لا يمكن أن تحيا دون مجانين.

كنت على حدود تركيا حين أتاني الهاجس. قال محمد وقد اكتسى وجهه بجدية بالغة، جعلت وجهه الوردي يتلون بدكنةٍ زادها الغروب قسوة، ولا أدري لماذا أردت الضحك، فأدرت وجهي سريعًا صوب النخيل خشية الافتضاح، فأكمل محمد: بالليل وكان الثلج ينهمر فوق رؤوسنا ونحن نبحث عن مخبأ وسط الغابات، بكى واحدٌ من الرِّفاق، قال: ملعونٌ أبوها الدنيا.. تغربنا في بلادنا.. تكتب علينا الشتات في بلاد العالم. وتخايل لعيني

أني رأيت سعيدًا مصلوبًا على هامات الأشجار، فيما كانت الشمس تشرق كنت قررتُ العودة إلى مصر.

استدرت أواجهه: ماذا تقصد؟ عن أيّ هاجسٍ تتكلم؟ لكنه نفض نفسه من يدي التي حاولت القبض على ذراعه، تحرك مبتعدًا، فيما أحاول اللحاق به رحتُ أستعيد حلم سعيد، ابن العمة، بلم العائلة كما كانت أيام جده الرحال الكبير، قلت محاولًا إعطاء نفسي مدةً كافيةً: سعيد مات يائسًا.. فالتفسير الذي وضعه لحالة الشتات، كان يعمل ضده.

توقف محمد: ربما كان سعيد رومانسيًا، يؤمن بالقدر الكافي لتحطيمه، لكن هناك أسبابٌ أخرى هي التي جرَّت الخراب، بعيدًا عن السبب الأخلاقي الذي تبناه ابن عمتك في أواخر حياته القصيرة. قلتُ بفراغ الصبر: وأنت الآن مهيأ للمِّ العائلة؟! قال: من حقك أن تسخر يا مثقف، على العموم، خذ هذا المثال عندك، ما اسم ابن عمتك؟ دون أن أعبر لضفة الاستفزاز التي يمهدها قلت: سعيد مصطفى. توقف مواجهًا لي، ونظر مباشرةً في عينيّ وهو يقول: هل فكرت يومًا في عكس الاسم؟

مذهولًا توقفت، وتركني وسار.

توقف الحاج عثمان قدّام باب الجامع، بقدمه يبحث عن مداسه في الأرض دون النظر، خلفه بخطوةٍ وقف الغريب ممسكًا بعصاه، كان المصلون يخرجون تباعًا، يسلمون: كل سنةٍ وأنت طيب، والعام القادم بالحجاز. ويأتي الرد: جمعًا إن شاء الله. يتهامس البعض مشيرًا للغريب، من رأوا الحكاية عصرًا راحوا يسردونها بتأفف واضح. قال الحاج عثمان بصوته القويِّ الخشن: عندنا كرامةٌ بالبيت الكبير، تفضلوا. دائمًا عامر يا حج؛ انطلقت من الأفواه، وتقدم البعض للاعتذار لسببٍ يمنعه، وتحرك البعض خلف الحاج عثمان الذي كان يبحث بعينيه وسط الجمع عن عيد، لمحه يكلم واحدًا على انفرادٍ.

أمسك الغريب بكم الحاج فأوقفه، قال: لديَّ أصحاب في البلدة المجاورة، وهم في انتظاري. قاطعه الحاج: يا ابن أخي، لا يأبى الكرامة إلا لئيم. وأفلت كمه وسار نحو عيد، الذي لمحه قادمًا فهز رأسه وسار بين الرجال.

ما الذي دفعني لأقول له يا ابن أخي؟ تساءل الحاج عثمان في سره: هو يماثلهم، لكنها، أعرف، هواجسي التي تنذر بشؤمٍ قادمٍ. توقف مباغتًا نفسه بتساؤل: أأحاول استمالته؟ تلفت متطلعًا للغريب الذي أصبح ضيفه الآن، رآه يسير بجوار عيد، فتحرك للأمام نافضًا عنه الوسواس.

في الشارع الواسع المؤدى للبيت الكبير، كانت سحابة من غبار أثر تدافع الأقدام، ولعب العيال بالشارع، تحلق فوق الموكب، رفع الحاج عثمان

وجهه متتبعًا الغبار، لكن عينه فجأة أغمضت غصبًا، رد وجهه نحو الأرض وهو يتمتم: حتى الرجفة لا تريد أن تفارق.

"مصطفى سعيد"؛ رجل الطيب صالح في "موسم الهجرة"، ما الذي يربط بينهما؟ أعرف أن محمد قارئ نهم، وكنت أحاول مع الكتابة، دون الوصول لنتائج مرضية، فقط بعض التخطيطات لأفكار تلوح فجأة، أكتب بحماس شديد بعض الصفحات، ثم تدريجيًا يهمد كل شيء، في منتصف الطريق أفقد الرغبة، كثيرًا ما كان يتهمني محمد بالخوف، قال: الكتابة تحتاج إلى شجاعة كما الحياة تمامًا، ويبدو أنك أوقفت حياتك للفرجة دون الخوض في معتركها.

كنا قد فارقنا الحاجر، آخذين الطريق المتعرج الصاعد نحو البلدة، الآن أنتبه لملاحظة محمد الذكية: في هذه البلدة لا توجد طرق مستوية، كلها أما صاعدة، أو هابطة، أو متعرجة. وكان يضحك وهو يقلد طرق المشي: أن تسير عليك أن تعمل جاهدًا لحفظ توازنك واستقامة ظهرك. كان الطريق فعليًا يلتف حول إبط تل يصعده متعرجًا حتى يستوي على الهضبة المقام فوق رحابها البلدة وخلفها يقع الجبل الكبير، والذي يبدو كحاجز يحوط البلد ويدفعها باتجاه النهر، غير سامح لها بالتنفس، أو التوسع، تشرِفُ الهضبة على الأرض المزروعة، وهناك في البعيد يرمح النهر شمالًا، في مرةٍ حاولت أن أكتب قصة عن النهر، لو أنه يتحرك باتجاه الجنوب.

كان محمد يسبقني بخطواتٍ، وأنا حائرٌ في كلامه، أتمهل لأعطي لنفسي الوقت، لكن بدا لي أنه ليس هناك علاقة، أي علاقةٍ، بين سعيد ابن عمتي،

ومصطفى سعيد رجل الطيب صالح، قلت: توهمات لحالم آخر. بلفظ أدق؛ مجنون.

مددت خطوتي لألحق به، قلت: أنت تمسك بحبالٍ واهيةٍ. توقف فكدت أصطدم به، مسح العرق من على وجهه، وبدا أنه يفكر فيما سيقوله، تخطيته سائرًا أمامه، فأطلق ضحكةً وهو يقول: ينقصك الخيال يا ابن العم. لم أشأ أن أجادل، هززت كتفي وسرت حتى استوى الطريق.

كان البراح شاسعًا أمام البيت الكبير، هذا البيت الذي بُني خارج البلدة، ويشبه قلعةً، كانت سحابةٌ من غبارٍ ترسم خطوطًا غليظةً ومتعرجةً، متقاطعة فوق الساحة؛ من الجهة الأخرى كان يتقدم جمع من الرجال صوب البيت، فيما كان واحد يدق على الباب.

هبَّت نسمةٌ طريةٌ محملة بروائح الحقول البعيدة، تلقفها الجمع الواقف قدام الباب، وبترحيبٍ بالغٍ راح البعض يثني عليها، ولاعنًا في نفس الوقت حرارة الظهيرة التي كادت تشوي البلدة داخلها.

كان الباب الكبير قد فتح على آخره، والحاج عثمان يدعو الناس للدخول، ويدفع بعضهم بزقةٍ لطيفةٍ من يده، البعض يردد عبارات المجاملة، والبعض يكتفي بابتسامةٍ ويدخل. أبناء العائلة كانوا أول من دخل ثم تبعهم الباقي، تراجع الغريب، لكن دفعة من عيد وتفضل، جعلته يتلجلج، وبنظرةٍ من الحاج عثمان دخل، وتبعه عيد.

وقف الحاج عثمان وحيدًا مواجهًا قمر العيد المقارب للاكتمال، يتذكر أن عامًا قد مر على آخر مرةٍ خطت فيها قدمه صوب البيت الكبير: ياه، سنة، هل للقسوة مكان؟ أم الجفوة القديمة ما تزال قائمةً؟ سنةٌ مرت منذ توفيَت فاطمة، الأخت، وكأنني أقف لحظة الطرد، كما أنا الآن، الفارق هو الزمن، لحظتها لم أكن حزينًا، كنت فقط أقف على بداية طريقي، سأضحك الآن على نفسي لو تصورت بأني كنت أُطرد من الجنة، كنت أشعر بالمباغتة، الأخذ على خوانة، لم يكن أحد يقدر على فعل شيء، أي شيء، يمين قد أُقسم ويجب الوفاء به.

- يا عم لماذا تقف بالخارج؟ كان البشاري وقد وقف بفتحة الباب، تبسم العم لمرآه، قال: أنتظر ضيفًا تأخر. خرج البشاري ووقف بجوار عمه، وراح ينظر للرسوم والكتابة على الحائط، والتي علاها غبارٌ ناعمٌ فأطفأ بهجة ألوانها، وإن كان ضوء القمر أبان بعض الرسوم.

- لم تعد تزورنا يا عم.

- للسن أحكامه يا ابن أخي.

- منذ وفاة عمك، لم تحل بالمضارب.

استدار الحاج عثمان مواجهًا البشاري، ودق بنبوته على الأرض، قال: النبوت دا من خور السلم، و.. وقبل أن يكمل قطع كلامه صوت خطواتٍ قادمة مسرعة، تبسم الحاج وقال: ها ضيفنا قد جاء.

انفلتت زينب داخلة من الباب وردته بسرعة، وحل ظلام وبعُد الصوت، تحركت نحو المعلاق الذي رمت عليه بعض أثوابها فوق أثواب العمة، والتي رفضت اقتراح والدها بتوزيعها على الفقراء، بدأت تخلع الثوب الذي تعبت به طوال نهار العيد، واشتكت عزيزة من رائحته، زفرت وهي تلقي الثوب على طرف السرير، ومدت يدها نحو المعلاق، لكنها تراجعت.

غرفة العمة والواقعة خلف الديوان لم تكن تحوى سوى السرير العالي القديم ذي الأعمدة، من بقايا جهازها وهي عروس، وصندوقين أحدهم للعمة، والآخر يخصُّ الجدة، فاطمة الأولي، صندوقين من خشب أسود وثقيل، عليهما كتابة ونقوش. رغم مرور سنة لم تحاول زينب فتح أحد الصندوقين، رغم احتفاظها بالمفتاحين. وحبل شد عند ركن الغرفة، وراء الفسحة التي تركها السرير، علقت عليه أثواب العمة، والغطاء الزائد من بطاطين ومفارش.

في الصباح حين جاءت زينب كانت تحمل لفة فيها بعض ملابسها، ذلك أنها قدرت أن تبقى أيام العيد –الأربعة- ببيت العمة، عندما دخلت توجهت أولًا نحو غرفة سعيد، التي كانت ستزفُّ بها، لكنها توقفت في منتصف المسافة، وهي تستشعر انقباضًا يعصر قلبها، فارتدَّت ذاهبةً لغرفة العمة، فتحت الباب فهاجمتها رائحة الرطوبة التي تعبق بالمكان، الرائحة

مختلطة بالمحلب والصندل والتراب، تركت الباب مفتوحًا كي يدخل الهواء والنور إلى قلب الغرفة المظلمة.

في لحظاتٍ كانت قد بصرت بمحتويات الغرفة؛ طست مركون إلي الحائط، و حبرش على الأرض ملطَّخ بآثار الحناء، فهاجت مشاعرها، ونهنهت بالبكاء. استندت على السرير، وتذكرت أنه مر عام على رحيل العمة، عام قد مر دون أن يدخل أحد هذه الغرفة التي غسّلت فيها العمة وقامت هي وعزيزة بتخضيبها بالحناء، كانت طوال أيام العزاء حريصة على جعل الباب مفتوحًا لكن دون أن تسمح لأي شخص بدخول الحجرة، في الليل كانت تدخل وحدها وتعلق فانوسًا كي ينير الغرفة ثم تفرش حصيرًا قدام الباب وترقد فوقه. عقب الانتهاء من العزاء سكّت الباب، قفلته ووضعت المفتاح بجيبها، كانت كلما جاءت، فيما بعد، تخشى أن تدخل الغرفة أو تقترب منها، كانت تظن أنها ستجد العمة جالسةً فوق سريرها، لذلك انتابتها رهبة ورعدة وهي تفتح الباب، لكن الرائحة المعلقة في جو الغرفة منذ أغلقت هي التي هاجمتها.

نظرت حولها، كان الغبار قد غطى الحوائط، وتراب ناعم نزل على السرير وملابس العمة المعلقة، وداری النقوش التي على الصندوقين، هبت واقفةً كملدوغةٍ، نفضت الدموع، وبدأت حملة نظافةٍ واسعةٍ، بادئةً بغرفة العمة، أخرجت أولًا البُرش بعد أن طوته بحذرٍ، ثم الطست، وراحت

تكنس بحذرٍ شديدٍ، خوفًا من دبيب الأرض الذي يعشق الأماكن الرطبة المظلمة، والخالية من البشر.

في هذه الغرفة الآن ترهف زينب سمعها للأصوات المنبعثة من قلب الديوان، الأصوات ضعيفة بالكاد تسمع، سمك الحوائط كان يعيقها، حاولت زينب تبين صوت والدها، تعرفه من بين الألوف، هكذا تدّعي، لكنها الآن لا تقدر، فقط أصوات أبناء أعمامها، تعلو أحيانًا، وأحيانًا تخفت، أصواتٌ متداخلةٌ مختلطةٌ، هي لا تعرف معظمها، لكن على أيّة حال هم أبناء عمومتها.

رفعت قبّ قميصها التحتي تشمه، مرةً، ثم مرةً أخرى، ثم قررت خلعه، كانت قد اعتادت الظلمة، رمت القميص فوق الجلباب على طرف السرير، واستدارت نحو المعلاق، ورنت خلفها في جو الغرفة ضحكة اهتزت لها أركان السرير، لم يُنس الفزع زينب أنها عاريةٌ تمامًا إلا من سروال، رفعت يديها تلقائيًا كي تدارى عرْىَ صدرها، وهي تندفع للاختباء بين الملابس المعلَّقة على الحبل، والضحكة زاد صفاؤها ووضوحها.

- عجّزت يا عوض الله.

ضحك الحاج عثمان وهو يقبض على يد عوض الله النحيفة، وعوض الله ما يزال ينهج، وبيده الأخرى يلم العمامة التي تهدلت فوق رأسه، قال بمودة صافية: ملعون أبو الهموم. ثم أخذ يعيد لفَّ العمامة ويحبكها وقال يداعب الحاج: أنا كنت عيل لما كانت الصوابي توُقف على رجل لما تخشها. ضربت الكلمة الحاج عثمان، فأفلت يد عوض الله وقال بحدةٍ غير مبررةٍ: أنا أصبى منك. ضحك عوض الله، وأشار للواقف، قال الحاج عثمان: ود الجبال، البشاري. مد مجاهد يده وسلم.

للحظات ساد الصمت، الحاج يقلقل رجليه، وينظر للساحة التي تم هجرها، حتى العيد لم يعد أحد يصليه هنا، فبعد أن استطاع الولي الفقير أن يقيم ساحته في الطرف الثاني من البلدة، حتى جر الناس إلى هناك. بدت الساحة موحشة وخالية من أي حسٍّ يربطها بالحياة، الأرض الرملية مليئةٌ بالأحجار الصغيرة والزلط، حتى المنبر تهدَّمت حجارته، كانت قد بُنيت عدة مساطب حجرية فوق بعضها مشكلة المنبر، يتجمع الناس بالجامع عقب صلاة الفجر ويأخذون في التكبير و التهليل حتى شروق الشمس، فيخرجون، يقودهم الإمام، قاصدين الساحة التي جهزت منذ عصر الأمس، والتكبير والتهليل يتصاعد مع انضمام الرجال والشباب والأطفال عبر الشوارع التي يقطعها الموكب باتجاه الساحة، ساحة الرحال، حشدٌ

هائلٌ يجلس في براح الساحة حتى موعد الصلاة، بعدها يقوم الإمام ويصعد الدرجات الثلاث –المنبر– و يبدأ خطبة العيد.

- يمكن سنة أو أكثر.

أفاق الحاج عثمان على صوت عوض الله، فاستدار ناحيتهم، وقال للبشاري: خذ عمك عوض الله وادخلا. نظر مجاهد إلى عمه مستغربًا أحواله لكنه لم يكن يملك سوى أن يطيع، والحاج عثمان كي ينهي لجاجة الموقف عاد يستقبل الساحة، وعوض الله تقدم داخلًا البيت وتبعه البشاري على مضضٍ، والساحة قابلت الحاج عثمان بمنظرها المقبض، كانت تصرخ بوجهه تشكو قسوة الهجر، لم يتحمل وهزته رعدةٌ أدارته باتجاه الحائط، طالعته رسوم عيد التي غطاها الغبار، قال: نسيناها، لم نعد نتذكر شيئًا، آه، الزمن. وكأنما لدغته الكلمة فأجفل متراجعًا.

- يا عم.

جاء صوت من الداخل، تقدم الحاج عثمان وهو يُهمهمُ: لله الأمر.

ظنَّت أنها عزيزة، لكنها لم تسمع الباب يفتح، أو يغلق، كانت تُخمِّن وهي مختبئة بين الملابس المدلاة من المعلاق، كان السرير يحجب ساقيها العاريتين، وبيد ترجفها المباغتة تحاول العثور على ثوب تسدله على بدنها، والضحكة استقرت وأخذت راحتها، وأعقبتها بكحة صغيرة، قالت زينب: عمتي.

أخرجت رأسها من بين الملابس، كانت العمة بجرمها الضئيل -كما في أيامها الأخيرة- جالسة فوق السرير، تواجه زينب وتبتسم في وجهها، همت زينب بالجري نحوها، لكن عريها ردها، وجاء صوت العمة ضاحكًا: لسه زى ما أنتِ.

يدها تقلب بين الملابس، تريد الوصول لواحدٍ من أثوابها التي رمتها فوق المعلاق في الصباح، وعينها على العمة، حاولت أن تتكلم، لكن صوتها حبس بحلقها، كانت تحاول التيقن من كونها مستيقظة، بيدها الخالية قرصت صدرها، تأوهت، والعمة أوقفت ضحكتها وأعقبتها بسعلة قبل أن تقول: الأيام بتروح يا بتي. كان الصوت يملأ براح الغرفة شِبْه المظلمة، قبضت يد زينب على ثوب، تعرفت على أنه يخصها من ملمسه بين أصابعها، قالت في نفسها: أنا صاحية. جذبت الثوب نحوها، لكنه لم يطاوعها، بدا أنه قد علق، بضيق صدرها شدته مرةً ثانيةً، لكن بقوةٍ أكبر، وأيضًا لم يطاوعها، تحرك الجسد الرابض فوق السرير، فارتج السرير، لا إراديًا مدت زينب يدها وقبضت على العامود النّحَاسي القريب منها، لكنها أفلتته بسرعةٍ لما

سرى بذراعها تيار بارد جعل جسدها يرتجف، لكن عينها ظلت تتابع العمة المتربعة فوق سرير زواجها، قالت العمة: جدتك فاطمة قالت لي على المرأة.. وتنهدت قبل أن تكمل: الفارسة أن تعرف متى ترخي لجامها.

الحنق وصل مداه بزينب من الثوب العالق، فاستدارت تخلصه، نظرت للثوب الذي تقبض عليه، اكتشفت أنه للعمة، تركته والتقطت بسهولة واحدًا من أثوابها، وبسرعةٍ وارتباك راحت تدسُّ رأسها في طوقه، وهي تستدير مواجهة العمة، التي لم تكن موجودة.

جمدت زينب للحظات، ثم دارت برأسها في أنحاء الغرفة تبحث عنها، والثوب معلَّق برقبتها، وجاء صوت قويّ من الخارج، ذكرها بعريها: يا عم.

توزع الرجال فوق الدكك والحُصْر المفروشة، وفانوسٌ معلقٌ يلقي بضوئه الواهن، وعيد في أحد الجوانب يشعل الكلوب، كان قد صب بعضًا من السبرتو في الحوض القريب من الرتينة، القنديل الذي سيشتعل، وراح يكبس الهواء داخل خزان الكلوب المعمر بالكيروسين.

جلس الغريب -حين دخل- في أقرب مكان خال، فوق واحدة من الدكك المرصوصة بعنايةٍ فائقةٍ، عصاه بين ساقيه، وعينه تقلب في المكان، بينما أبناء العمومة بعضهم جالس والبعض يتحرك بين الجمع مرحّبًا.

طفلان يمرَّان بين الناس، واحدٌ يمسك بالإبريق ويصبُّ الماء على الأيدي، والآخر يتلقى الماء المتساقط من غسل الأيدي في الطست الذي يمسك به بيديه، وعلى كتفه فوطة ينحني قليلًا لتجذبها اليد التي غُسِلت توًا لتنشفها، ثم تعيدها مرةً أخرى إلى الكتف المائلة.

محمد الإسكندراني يراقب عيد بحميةٍ، بينما دخل عوض الله الحلبي وردَّ السلام بصوتٍ جهورٍ وهو يرفع يديه ويطبطب على صدره، ليرد التحيات التي انهالت عليه، مجاهد البشاري جاء ووقف بجوار محمد الذي اقترب من عيد المنهمك بعمله، كان في هذه اللحظة قد أشعل عود ثقابٍ وأسقطه في السبرتو، فهبت دفقةٌ من نارٍ، أمسكت بالرتينة، تكفل الهواء المندفع من ضغط الحوض بتصفيتها، وتقويتها، حتى صارت تشبه النيون. قال محمد: مش الكهرباء أحسن. ضحك عيد وهو يحمل الكلوب: غلبت محاولة مع عمتك، إن ندخل الكهربا البيت، وهي على طول الخط تقول: يقولوا عليها تموت الناس، وبعدين لما أموت ابقوا دخلوها. وتعب معاها الحاج عثمان، وهي زى ما هي، كان المرحوم سعيد ناوى على فرحه، لكن القدر.

وتهدَّج صوتُ عيد بتذكر صاحبه، ومحمد الذي لحظ تغيُّر الصوت أراد تغيير الموضوع، فأشار للطفلين وهو يقول: ولادك. حمل عيد الكلوب وسار به إلى قلب الديوان، قال: نعم، عيد وسعيد. توقف محمد مشدوهًا، لكن عيد أكمل وهو يتحرك ويعتلي دكة ويقف فوقها: الأكبر عيد حسب النذر القديم، الصغير سعيد. ثم نظر لمحمد قبل أن يكمل ضاحكًا: حسب

النذر الجديد. ومد يده قبض بها على السيخ الحديدي المدلى من السقف، وبيده الثانية رفع الكلوب وعلقه.

غمر الضوء الباهر أرجاء الديوان، نزل عيد من الدكة وهو يرد على صيحات الاستحسان والله ينور، ودارت عينه تبحث عن الحاج عثمان، استند على كتف محمد وهو يميل عليه قائلًا: النسيان نعمة. استفهم محمد بهزة من رأسه، قال عيد: عمك. وسار نحو مدخل الديوان، تبعه محمد، فرأى عمه واقفًا أمام الباب، فنادي بقوةٍ: يا عم.

- اطلع برّا يا كلب.

هدر الصوت الغاضب لوالده، كان يقف على عتبة الباب، واللحظة نفس اللحظة، المغارب، بيده بندقيةٌ، التي ما ظهرت إلا نادرًا، وما استعملت أبدًا. توقف متسمرًا من قسوة اللحظة، كان بعض من إخوته واقفين يحاولون تهدئة الوالد، دون الاقتراب منه، تلفت عثمان حوله، كانت بيده عصاه، نفس العصا، لم يكن يدري ماذا يفعل، أو على أي نحو يتصرف؟!

- آخر الزمن...

كلمات الوالد رصاص يصيب بدنه، لم يشهد والده في حالة الغضب هذه من قبل، الآن بندقية في اليد، ومرجل الغضب يهيئ اليد للضغط على الزناد، لم يكن أمامه سوى التراجع، جاء واحد من إخوته، وجره من كمه. كانت نساء البيت؛ جدته فاطمة، وأمه، وأخته فاطمة، يقفن في الخلف، بدا الانكسار واضحًا على الأم، بينما الفاطمتان تتابعان المشهد بحياد جرح مشاعره، لم يكن يقدر واحد من الموجودين على قول كلمة، أو رد الأمر إلى التعقل، ثورة الوالد تتفاقم، والعجبان عثمان بدأ في التراجع مخذولًا.

- يمين تلاتة.. البيت ما تدخله..

قدمٌ خارج البيت، وقدم على العتبة، ونظرةٌ أخيرةٌ احتوت المشهد بغضبه الفائر والشعور بالغدر، ونهنهة الأم بالخلف، نهرتها الجدة بعنفٍ، ورياح

الغروب تضرب ثوب الجوخ بين ساقيه، كان الأب يتقدم، وضاع صوت الإخوة، والأب يشير إلى الأخ الذي يجر عثمان من كمه أن أدخل. فتركه ودخل. وحيدًا تراجع خطوته الأخيرة، وضربته الريح الجبلية بعنفٍ الصيف الهادر، فاصطفق جلباب العيد، الجوخ، محدثًا طرقعةً عاليةً، تجاوبت معها ردة الباب، الذي أغلقه الوالد في وجهه، بقوةٍ و حسمٍ: غور.. في ستين داهية.

تطلع مذهولًا إلى جدران البيت العالية، والباب الثقيل المغلق، وكلامٌ غاضبٌ لا يصل مسامعه بوضوحٍ. كان وحيدًا في مغرب العيد، غير مستوعبٍ لما جرى، ظل لفترةٍ واقفًا هكذا، ظن أنه ربما كان يحلم، لكن هذا ليس حلمًا بل كابوسًا مرعبًا، كان عليه أن يتحرك، ولما كان لا يعرف إلى أين؟ ترك الريح تدفعه.

تقدم محمد الإسكندراني تجاه العم الغارق في ذكرياته، بدا كأنه مدقوقٌ في الأرض، غير قادرٍ على التحرك دون مساعدةٍ، برفقٍ أمسك بكُمِّه، قال: الناس في انتظارك.

- آه. قال العم، وكأنه يفيق من غيبوبةٍ غامضةٍ، طويلةٍ وقاسيةٍ، تبسَّم لابن أخيه كي يتغلب على الحرج، أراد أن يقول شيئًا، لكن يد محمدٍ سحبته للداخل، بطرف عينه نظر، كان محمد يتحين الفرصة للاختلاء بعمه، مال وهو يقول: يا عم.. أريدك.. أن.. ووجد الكلام يهرب، والعم انتظر، لكنه لحظ أنه يسير تحت دفع يد ابن أخيه، رأى العم نفسه عيلًا يساق إلى مكان لا يرغب بالتواجد فيه، هز ذراعه نافضًا القبضة التي تسيطر على كمه، قال: خير. وأراد التوقف، لكنهما كانا على باب الديوان، فلمح الناس في غمرة الضوء يقفون لاستقباله، فدخل.

تراجع محمد مستديرًا تجاه حوش البيت، رأى النخلة قائمةً، تقدم نحوها، كانت محاطةٌ بظلامٍ خفيفٍ ونسمةٍ منفلتةٍ من قبضة الصيف الملتهب تداعب جريدها، قال: كان عليّ أن أفاتحه. وأتاه صوتٌ: البيت لازم يبقى مفتوح. تلفت مستطلعًا، لكن لا أحد، استدار، رآهم يحملون الصواني ذاهبين للديوان، في الخلف هناك تقبع الزرائب القديمة، مغلقة بظلامٍ قاتمٍ ومقيم، مرقت برأسه حكاية سعيد وجاء الصوت: الشَّتات. وللمرة الثانية يتلفت حوله، لكنه لم يستطع تبين نبرة الصوت جيدًا، كان جذع النخلة بجواره يئنُّ، والحشائش التي حوله هائشةٌ تنذر من يحاول

الاقتراب، استدار عائدًا، في منتصف الطريق لمح زينب خارجةً من بيت الطبخ، فحرك قدميه نحوها.

- كل هذا التأخير؟! قالت عزيزة، وهي منحنيةٌ تغرف الطبيخ من الحلل الكبيرة، وتضعه داخل أطباقٍ صغيرةٍ، مرصوصةٍ فوق صوانٍ بجوارها. لم تسمع من زينب ردًا، رفعت وجهها نحوها، قالت: بسم الله.. ما شاء الله. وضحكت، أرادت أن تكمل غير أن قدوم واحد من عيالها جعلها تصمت.

الولد حمل الصينية وقال آمرًا و هو يخرج: خلصوا. وكأنما حمى أنشبت بزينب، راحت تضع الأرغفة فوق الصواني، وفي نفس الوقت تتناول الأطباق من عزيزة وترصها بعنايةٍ فائقةٍ، وبعينها تتأكد من وجود ملاعق كافية فوق كل صينية، وتستعجل عزيزة كي تخف يدها.

جاء عيد والولدان، واثنان من أبناء العم، وأخذوا يحملون الصواني، واحدٌ من العيال حمل وعاء الماء الكبير والذي به قطعٌ من الثلج طافيةٌ، تناولت عزيزة الحلة الكبيرة وراحت تفرغ ما بها من لحمٍ داخل طبق كبيرٍ وواسعٍ، ثم غطَّته بطبقٍ من الخوص الملون، عمل يد زينب التي تناولت الطبق منها، وخرجت من غرفة المطبخ، نظرت الكل دخل الديوان، قالت: نسوا. لكنها لمحت ظلًّا يتحرك في الظلام قادمًا من عند النخلة، كان محمد الإسكندراني، وقفت حتى وصل عندها، ناولته الطبق، ولمحت في وجهه استفهامًا، قالت: أعطه لأبي. وردت راجعة للمطبخ وهي تبتسم.

بعد صلاة العشاء جاء ناسٌ، ورحل ناسٌ، وجاء الشاي، ودار مبسم الشيشة، وشكلت أعقاب السجائر حضورًا لا يمكن تجاهله فوق أرضية الديوان المفروشة بالرمل، ومن الداخل كان يأتي صوت غسل الأواني وشطفها، وأصوات الحوار تعلو حينًا وتخفت أحيانًا، لكن الملاحظ أن الضحكات كانت عاليةً، ثم كان أن انصرف الناس، وصفت القعدة.

الحاج عثمان وأبناء عائلة الرحال، وعيد وعوض الله الحلبي، والغريب الذي أصر الحاج على بقائه، في الداخل ظلت زينب وعزيزة تتسامران وتلبيان في نفس الوقت الطلبات الوافدة من الديوان، بينما غلب النوم الولدين؛ عيد وسعيد، فرقدا فوق سرير العمة المركون بجوار المطبخ، وبدأ الليل يأخذ منحى آخر.

- أتزوج زينب.

كانت مفاجأة لي، لم أعرف قبلًا بأن الجنون قد يكون ساكنًا بيننا، وأنه بلغ هذا الحد، وغير قابل للتراجع، كانت كلماته تحمل تأكيدًا لا يمكن مداراته، والمفاجأة تشكَّلت من كوننا قد تعاملنا مع زينب، على أنها زوجة سعيد، ابن عمتنا، وبالتالي لا يمكن الاقتراب منها، أو لمسها، وكأنما ما يزال سعيد حيًا قائمًا، يتحرك بيننا، ومن المحتم ألا يجوز النظر إلى زوجته على أنها امرأةٌ أخرى، يمكن اشتهاؤها، أو حتى التفكير بها كزوجةٍ محتملةٍ، وهي كانت قد أكدت على هذا حينما رفضت كل الذين تقدموا ليتزوجوا منها عقب وفاة سعيد، قالت بعناد يليق بها، ويليق بالعائلة ذات الدماغ الناشف: أنا أخذت نصيبي. هكذا كنا حين نمر بها لا ندقق بملامحها، أو التطلع لملاحتها، وتقاطيع وجهها، أو تكوين جسدها، كنا نسلِّم فقط، نمد أيدينا للحظةٍ كي تمسَّ أناملها ثم نحسبها، وكأننا سلمنا على واحدةٍ من أخواتنا، نتبادل كلماتٍ قليلةٍ حول أخبار العائلة والصحَّة والأحوال، حديث عام و عابر، دون رفع العين لتأمل من نحَدِّثه.

- شوف يا عم الكاتب، زينب بداية الحلم.

كنا منفردين فوق دكة، محمد الإسكندراني وأنا، والديوان أصبح مجموعةً من التجمعات المنفصلة؛ البشاري حوله ثلاثة من أبناء عمومته يحكي لهم عن الصحراء وأحوالها الغريبة، وعوض الله الحلبي بجوار الغريب، والذي أصر العم عثمان على بقائه معنا، والبعض تمدد فوق

الدِّكَكِ، وعيد يخلي حجرة الديوان الداخلية –الحاصل– للديوان ويعود وهو يحمل المفارش والأغطية الخفيفة، ثم يأخذ بتوزيعها، والعم عثمان فوق دكَّته، متصدرًا ومنفردًا، يدخِّن الشيشة ويراقب الجميع بعين هادئة، دون التدخل بأي حوار.

- أيُّ حلمٍ تقصد؟

كنت أراوغ فقط كسبًا للوقت، كي أعيد ترتيب الأحداث، ورنَّ بذهني مصطفى سعيد وزواجه من حسنة، انتفضت واقفًا دونما قصدٍ، حركتُ يدي في الهواء لكن محمد جذبني، فجلست.

- اهدأ يا عم المثقَّف.

هكذا يناديني دائمًا، يؤرجحني بين الكاتب والمثقف دون ذكر لاسمي، ولم أكن أعترض.

- العائلة.

قال وهو يشير إلى الجمع المتناثر حولنا، ثم أكمل: ليس هناك أمل في عودة هؤلاء، كل قد أصبح له حياته في مكان آخر، حياة وتاريخ ومصالح، لا يمكن التخلِّي عنها بسهولة، وهنا كانت أزمة سعيد، والنقطة التي قتلته، كان يدرك ذلك، لكنه لم يكن قادرًا على العبور، أزمته الشخصية تكمن في وعيه.

قلت مقاطعًا: تقصد أنه رأى الشتات كقدرٍ لا يمكن تفاديه.

قال وقد بدأ صوته في العلوِّ: لا، بل كعقابٍ أخلاقيٍّ، علينا جميعًا دفع الثمن وكاملًا، دون تذمُّرٍ، أخذنا الناس، هكذا بدأ الأمر، العبيد من بلادهم، وشتتناهم هنا، في بلادٍ غريبةٍ، بين ناسٍ أغرابٍ، ليس هذا فقط، لكن الجانب الأكثر إظلامًا وتعذيبًا في الحكاية أننا بِعنَاهم كعبيدٍ، كانوا أحرارًا في بلادهم، ونحن صيرناهم عبيدًا.

جاء عيد ورمى ملاءتين بجوارنا، قال وهو يبتسم: ليل الصيف سرَّاق. صمتنا وهو لمح انهماكنا في الحديث، فابتسم معتذرًا وراح يواصل جولته بين الدِّكك. التفتُّ إلى محمدٍ وقلتُ بنوعٍ من الاعتراض: في البداية حين بدأ الرجل الرحال الكبير تجارته، والتي لم يكن العبيد جزءًا منها، لم يكن هناك حسٌّ من التجريم أو التحريم لهذه التجارة، بل على العكس كان هناك غطاءٌ دينيٌ كاملٌ مشمولٌ بدعمٍ سلطويٍّ يؤمن هذه التجارة، ويكفل لها ازدهارها، هل يمكن للأحفاد تحمل أوزار لم يقترفوها؟ لنكن أكثر صراحة: لم تكن أوزارًا عند الرعيل الأول.

- يعني؟!

- ما الذي يدفع الناس إلى هجرة أماكنهم التي ولدوا و تربوا بها؟ حين انهارت تجارة الرحَّال، لم يكن يوجد هنا ما يمكن التعويل عليه، لم يبق سوى مواجهة الزمن والإفقار عبر التمسك بالتاريخ القديم، وهذا لا يشبع البطون الجائعة، ولا يستر عرى الأجساد، ولم يكن هناك بديل سوى

الخروج والبحث عن أماكن جديدة، بتاريخ جديد، خاصة وهذه البلاد تعاني من الإهمال الطويل والمتوارث من قبل سلطات الشمال.

- رجعنا لكلام الجنوبي.

- نعم يا إسكندراني، إنه الجنوب المنسيُّ، حتى الآن ما يزال الناس يتركون بلادهم وقراهم، بحثًا عن أرزاق وأقدارٍ مختلفةٍ، مدفوعين تحت ضغط إلحاح احتياجاتهم الأولية، سلاحهم الوحيد جهلهم العظيم وقوَّة سواعدهم، خبِّرْني ماذا فعلت الحكومات المتعاقبة؟ لم يكن الجنوب في حساباتها أبدًا، يبدو في نظرها كتلة يمكن إهمالها وتجاهلها، فقط الانتباه لنهب خيراته وتشريد ناسه عبر طول البلاد وعرضها.

- بالله عليك، خلينا في موضوعنا.

- وهل بعدنا عنه؟ أنت مثلًا، ما الذي دفعك للخروج من البلد كلها؟

- لكني عدت.

- من طريق الرؤية.

- نعم .. والآن العودة الكبرى.

ضحكت قبل أن أردَّ: بالزواج من زينب.

قال وهو يعتدل فوق الدكة، ومتَّخذًا وضعًا شديد الجديدة: أخطاء الماضي لا يمكن إصلاحها، بل يمكن تفاديها.

- قولٌ حكيمٌ.

أحسَّ بعلو نبرة السخرية والهزأ في قولي، فوقف وهو يقول: سأفاتح عمي. وسار نحوه.

- الوقت تأخر.

قالت عزيزة وهي تقوم نافضة ثوبها، كانت نسمةً طريَّةً قادمةً من النهر البعيد قد نبهتها لأولادها الراقدين فوق السرير، بصت لزينب الجالسة ساهمةً منذ وقتٍ، حاولت أن تعرف ما بها، لكن زينب لم توضح، وتعلَّلتْ بالتعب طوال النهار، وهدَّة الحيل والطلبات التي لا تنتهي لأهل الديوان. تعرف عزيزة أن ذلك ليس سببًا يدعوها للشرود، لكنها قبلت بتفسير زينب، فهي كتومةٌ كعمتها تمامًا، لا تكشف إلا ما ترغب الإفصاح عنه، لكنها عزيزة وبحسها النسوي خمنت سببًا آخر، ربما يكون لوجود أولاد عمومتها دخلًا في حالة الشرود هذه، سرَّ هذا التأويل عزيزة، فحال صاحبتها، وصديقة طفولتها يهمها. الصحيح أن سعيد قد مات، لكن زينب ما تزال في عزِّ شبابها، صبية، وكانت قد لاحظت حرصها المتزايد بعد عودتها حين غيَّرت ملابسها، بأن يظل الثَّوب نظيفًا لا يطوله أي وسخ.

راحت للسرير، وأخذت توقظ الولدين اللذين تكوَّرا، انتبهت زينب فقامت واقفةً، قالت: سيبيهم نايمين. كانت فقط تحرك لسانها بالكلام كي تشعر بأنها متيقظةٌ، تحركت خطوتين، كان الولدان يجاهدان للعودة للنوم الذي تحاول الأم جذبهما بعيدًا عنه، تهزهم برقَّةٍ لكن بحسمٍ أيضًا، قام

الولدان وهما يدعكان عيونهم، وبرطمةٌ غامضةٌ تخرج من الأفواه، تبتسم لها عزيزة وهي تنزلهما من فوق السرير، تمايل الولدان، وأصبحا على وشك الانكفاء، لكن الأم كانت قد دخلت بينهما، وسندتهما إليها وسارت.

خلفها مشت زينب، أرادت أن تشكر عزيزة على تعبها معها طوال النهار، تاركةً بيتها في نهار العيد، لكنها سارت صامتةً وهي تنظر للأم التي تحتضن ولديها، وهاجمتها رغبة غامضة في أن تكون محلها، وتدفقت لديها أحاسيس ظلت حريصة دائمًا على وأدها قبل أن تصرح بها لنفسها، لكنها الآن لا تدرك ما الذي أصابها، لتفلت مشاعرها من قبضتها، ولا تكتفي بل تهاجمها، حاولت التوقف، لكنها اندفعت تتابع عزيزة غير قادرةٍ على كبح خطوتها.

عند الباب وقفت عزيزة، وقالت وهي تعدل الولدين: ربنا يصبحك طيبة. وفي بالها كان هناك حديثٌ آخر: عليّ أن أسخن ماءً أشهد به بدني قبل قدوم عيد، فالليلة ليلة مباركةٌ، ليلة عيد، ولا يمكن تفويت بهجتها. خافت أن تنظر لزينب، فتطالع في عينها رغبتها ظاهرة، وتجرح مشاعرها، فآثرت التقدم، ورفعت قدمها كي تتخطى العتبة، لكن واحدًا من الولدين تعثر، وقبل أن يسقط ساحبًا معه الأم والأخ، لحقت به زينب وأقامته، فالتفتت عزيزة وهي تحاول أن تداري خجلها، لكن العيون تلاقت وكشفت عن السرائر.

وقفت زينب على العتبة تتابع عزيزة حتى وصلت بيتها، فارتدَّت عائدةً، ورغبةٌ جامحةٌ تسيطر على كيانها كله.

سار محمد قاصدًا الدكَّة الجالس عليها العم، تدفعه همةٌ عاليةٌ لإنهاء الموضوع، الآن وهنا أمام الجميع، وقبل أن يصل اعترض طريقه عوض الله الحلبي، وبجواره الغريب، توقف محمد، قال عوض الله: يريد الحمام. وأشار للغريب. لم يدر محمد على أيِّ نحوٍ يتصرَّف، راحت عينه للرسوم على الحائط الذي يواجهه، دكَّةٌ عريضةٌ يجلس أحدهم فوقها بما يدل على قوَّته، كان يسند ذراعه على عامود الدِّكَّة ونظره سارحٌ في البعيد، واليد الأخرى تقبض على مبسم الشيشة وتقربه من الفم المزموم، وفي الخلف مجموعةٌ من الإبل ترعى، أغلبها باركٌ يجترُّ، وواحدٌ مسرَّجٌ يقف بشموخٍ وينظر للجالس فوق الدِّكة.

تحير محمد، فنظر لعمه، فأشار العم إلى الحمام القريب من باب البيت، تلفَّت محمد حوله، علّ واحدًا غيره يقوم بهذا الآن، ويذهب بهذا الغريب الذي ظهر لهم في البخت، لكن لم يتحرك أحدٌ، قال محمد في نفسه: كأنني أنقصه. ولم يكن أمامه سوى الامتثال لأمر العم، وحاجة الضيف، فقاده خارجًا من الديوان.

قال عوض الله و هو يجلس بجوار الحاج عثمان: الولد جبلاوي. شد الحاج عثمان نفسًا طويلًا من الشيشة، وراح يخرج الدخان على مهلٍ وهو يقول: من ناس مين؟ وناول المبسم لعوض الله، الذي التقمه مباشرةً، كي يعطى نفسه الوقت ليجيب دون أن يهتز صوته.

ركب عيد دكَّةً ومدَّ يده كي تطول الكلوب، فاهتزت الرسوم على الحوائط، وتحركت متداخلة، وقف البعض يساعده، والحاج عثمان الذي يعرف ألاعيب عوض الله، لم يتعجله، بل تابع السفينة المحمَّلة بالبضائع والبشر وهي تتداخل في المرماح الذي فرَّتْ منه خيل السِّباق، ومد يده لمبسم الشيشة، فقدمه عوض الله دون اعتراضٍ، عارفًا بأن مراوغته باتت مكشوفةً، ولا ينبغي الاستمرار فيها، قال: من بيت البحيري. وبطرف عينه تابع المبسم الذي توقفت يد الحاج عثمان عن الصعود به إلى الفم، للحظة، ثم واصلت صعودها، وكأن الأمر عادي، وعوض الله الذي أصبح الموضوع ثقيلًا عليه، أراد الانتهاء منه، قال بسرعةٍ: ابن مسعود البحيري.

الخيال. قال الحاج عثمان دون أن يتحكَّم في رده، فهز عوض الله رأسه مؤكدًا، كان عيد قد قبض على يد الكلوب وخلصه من المعلاق برفقٍ، سنده بعض الواقفين حوله كي لا يقع، وهو يتبسم لهم، مدركًا قلة خبراتهم، وقلقهم بدا له مبررًا بسبب نزعتهم لفعل أي شيء، بدلًا من القعدة الطويلة، نزل عيد وسار تجاه أحد الأركان، ووضع الكلوب على الأرض،

ثم مال نحوه وفتح محبس الهواء، فأصدر وشيشًا عاليًا، وأخذ ضوء الرتينة في الانطفاء.

قام عوض الله عائدًا لدكته التي كان يجلس عليها، تاركًا الحاج عثمان ليغرق في ذكرياته القديمة.

بدا وجهها محتقنًا، تنقل قدمها بصعوبة، كأنما شيء بداخلها يجبرها على التوقف، ليزرع بداخلها السؤال الذي دائمًا ترغمه على التراجع والابتعاد عن وعيها، لكن الآن، وبعد أن رأت عزيزة بين أولادها، ورغبة صادقة، وجارحة، تتدفق من وجهها، وحديث العمَّة، ورائحة الذُّكورة المسيطرة على جو البيت، كل ذلك وضع وحدتها وعنادها في المواجهة.

على الفارسة أن تعرف متى ترخي لجام مُهرتها. هذا ما قالته الجدة، أو الأم، وطبقته العمة، حين حكت لها عن حياتها، كانت لحظة صفاءٍ نادرةٍ، وسعادة تحط على البيت الكبير، كان ذلك عقب خطبتها لسعيد. آه، ما أبعد الأيام! تأوهت وهي تتلفت حولها، وبقدمها تدق على الأرض كمهرة تستعد لدخول السباق، كانت تريد من جسدها أن ينتفض ويسقط كل الأسئلة، كي تعود إلى طمأنينتها التي أصبحت مهددة.

خطت خطوتين، فوجدت نفسها في وجه ابن عمها، الإسكندراني، ومعه شخصٌ غريبٌ، لم تستطع التعرف عليه، ارتبكت قليلًا، لكنها تراجعت خطوةً مفسحةً لهما الطريق، فواصلا التقدم، وهي نكست وجهها وسارت ناحية السرير.

أشار محمد إلى الحمام المعلق بسقفه فانوس صغير، تقدم الغريب ودخل، وبقي محمد في الانتظار، أخرج سيجارة، وعينه تتابع زينب التي تتحرك بعصبية ظاهرة، حتى وصلت للسرير، قرب المطبخ، لم يستطع فهم عصبيتها الآن، في بداية الليل حين أخذ منها طبق اللحم كان مشوشًا، وهي ابتسمت في عينيه، هكذا رآها، وهذا سره، لكن الآن ما الذي بدلها، أهو وجود الغريب؟ وتصاعد العداء داخله، نظر للحمام، قال لنفسه: هل أذهب وأفاتحها؟ وهمّ بالتحرك، لكن انتظاره للغريب كبله، فلعنه منتبهًا لمشاعره العدوانية، والتي تزايدت الآن.

حين بوغتا بزينب أمامهما، تلقائيًا نظر للغريب، وجده ينظر لها بوقاحةٍ، فأحسَّ به كعدوٍ يقف بجواره وعليه أن يواجهه، لكن تبسم لحاله: يبدو أنني وقعت في الحب وبدأت أغار. التفت إلى زينب الجالسة فوق السرير، فبدت بسبب الظلام الخفيف، كتلة تغطيها الظلال، تخفى معالمها، لكنه يشعر على نحوٍ خاصٍ بأنها تنظر إليه وتبتسم. هي أوهام العشاق! قال وهو يهز رأسه، ويأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته.

تنحنح الغريب وخرج، همهم بكلماتٍ شاكرةٍ، وعينه تستطلع المكان حوله، وتوقفت عندما لمحت الكتلة المظللة فوق السرير، لكن محمد المعبأ بحسِّ الضغينة لم يفُتْه ذلك، فقال آمرًا: تفضَّل. وقاده راجعًا للديوان.

مَن الغريب؟ تساءلت زينب وهي في جلستها تراقب ابن العم الواقف هناك، بالقرب من الحمَّام، كان تساؤلها ينم عن اشمئزازٍ بالغٍ، أحسَّت به حين بوغتت بخروجهما أمامها وهي عائدة، للحظة وقعت عينها على وجهه، بالتحديد عينه، رأت فيها نظرة وقحةً، هازئةً، كأنها تعلم ما يعتمل داخلها من رغائب، وفي نفس الوقت تحاول كبتها، كانت نظرته تقول: أعرف. أو هكذا توهمت، وعلى نحوٍ غامضٍ شعرت بأنها تتخلى عن ملابسها، تتعرى، أرادت أن تصرخ: أنه يعريها. ولكن بالحس الأنثوي الحكيم تراجعت مفسحةً الطريق، وهي تردُّ باحتقارٍ وتعال في نظرتها الأخيرة، لكنها وللعجب وجدت نفس البسمة الهازئة ترقص فوق ملامحه الغامضة، فهربت بعفويةٍ نحو ملامح ابن العم، كأنها تستنجد به، كانت نظرته الحانية والتائهة التي رأتها في أول المساء، قد زالت، وحلت مكانها نظرة عداءٍ صريحٍ موجهةً للغريب الذي يرافقه، هل ارتعش جسدها؟ لا تنكر بأن سعادة غمرتها، ذكران يرغبان بها، هذا ما أكدته حواسها، لكن عقلها المتيقظ ردها لحالها، فخطت متعجلةً نحو السرير.

الآن تري ابن عمها في حيرته وقلقه البادي من ارتجاف السيجارة بين أصابعه، فتبسمت لحاله، ورأت كأنه يرد على ابتسامتها، ببسمةٍ هادئةٍ، وواثقةٍ، كأنما تمد جسورًا من الثقة والتواطؤ والمعرفة المتبادلة بينهما.

خرج الغريب وأراد التلكُّؤ، لكن ابن العم قاده بحزمٍ تجاه الديوان، وهي من قعدتها قامت مستشعرةً طراوة الليل التي بدأت تغمر البيت،

ونسمةً عابرةً داعبت جريد النخلة، فأحدث الاهتزاز صوتًا، جعلها تلتفت للنخلة، سرَّة البيت، وسرة العائلة، كما تسميها العمة، ورأت جريد النخلة يتمايل نحوها، يناديها، فراحت نحوه.

لم يكن أمامه سوى تنفيذ قسمه، وكان الرجل -الذي لا يعرفه- فوق حصانه، ذاهلًا من خسارته غير المتوقعة له، كان عثمان يتقدم نحوه برويةٍ، بين الناس المتدافعين، كانوا يصيحون ويهللون لفوز فاطمة، وضحكات السخرية تتردد قويةً وفاضحةً، تجرس المغلوب، نزل الرجل عن حصانه، وعندما استدار كان في مواجهته، ثبتته المفاجأة للحظة كانت كافية ليرفع فيها عثمان يده، ويصفعه بقوة على وجهه.

كان قد شاهد خلال المواسم السابقة كثرة الطلبات للتباري مع أخته، وتحدي العائلة وكسر شوكتها، وكانت فاطمة توفي بما هو مطلوب منها دون تذمُّرٍ، بل بمتعةٍ فائقةٍ، كانت تفوز على كل من يسابقها، وكان ذلك جيدًا، وأسهم العائلة، والرجال، إخوتها، في ارتفاع، وجاء شرط الزواج كراعٍ أخيرٍ -يمكن للعائلات الأخرى المتنافسة معهم- الاستناد عليه، فاجتمع الإخوة، وصدر قرارهم، لا زواج إلا من الفارس الذي يستطيع التغلب عليها داخل ساحة المرماح، وهكذا طمع الجميع، وأرهقت الأخت، وكان لابد من حلٍ، يوقف الطلبات التي جاوزت الحد، فما كان من عثمان، العجبان، أو الفتوة كما يلقبه حواريوه، إلا أن جهر بينهم: إن كنا نقدم الزواج كمكافأة، فعلينا أن نعاقب أيضًا، وإلا ظل الحال سداح مداح. وطاف يوم العيد بين الجموع وهو يعلن قسمه: بأن من سيتغلب على فاطمة في سباق الخيل، ستكون من نصيبه، أما الخاسر فسيقوم بصفعه هو. حاول بعض الإخوة رده عما انتواه، لكن القسم صار مشهرًا، ولا يمكن التراجع فيه.

جرت هذه الوقائع في غيبة الأب، والذي قد بدأ في إظهار تودده للأولياء والدراويش، كان بعيدًا في أحد الموالد، وكان على الإخوة -فاطمة لم تعلم بالشرط الجديد- التصرف، ومنع عثمان من تنفيذ وعيده، فخسارة في السباق لا تعد إهانة شخصية، وتطول كل العائلة، أما صفع الوجوه، فسوف يجر من البلايا، ما لم يمكن توقعه، ويفتح أبوابًا من الاحتقار والعزلة، هم أبعد ما يكونوا راغبين في ذلك.

كان مسعود البحيري أول من وقف بوجه فاطمة حين افتتح السباق، رآها عروسًا، صبيةً جميلةً، تستحق المجازفة، المجازفة بالتسابق، وليس بشرط عثمان، فهو -كما يظن- واحدٌ من ألاعيب الرجال، كان يرى فيه نوعًا من التهديد، لكن ليس من السهولة تنفيذه، لذا عزم على خوض السباق، ممنيًا نفسه بالفوز وخطف عروس جميلة، ونسب بعائلةٍ عريقةٍ، لكنه وقع في خطأٍ بسيطٍ، وقع فيه أغلب من نافسها، ألا أنه استهان بقدرتها ومهارتها، وانشغل بما تمثله، ليس بكونها فارسة، إنما صيدًا سهلًا على وشك الانقضاض عليه، وهكذا لم يفق من خسارته للسباق وضياع فرصته للأبد، إلا عندما وجد عثمان أمامه، كان غير مصدق، والحصان بجواره يحمحم، ويدقُّ بسنابكه الأرض، جمد للحظةٍ، لكن عثمان لم يمهله، وقد جاء ليحصل الدين، رفع اليد وصفعه، كانت الصفعة من القوة بحيث ألصقت وجهه برقبة المهر الغارقة في عرق السِّباق الخاسر.

حين بدأ السباق تلفَّت الإخوة بحثًا عن عثمان، لم يكن بينهم، أو حتى في الجوار القريب منهم، كذلك رفاقه كانوا قد اختفوا بدورهم، تفرق الإخوة بحثًا عنه، البعض منهم جرى حيث توقع وجوده المعتاد في حلقة التحطيب، وبالطبع لم يكن هناك، والبعض راح يفتش بين جمهور السباق، وأيضًا لم يكن موجودًا، أما الأكثر فطنةً فقد جرى نحو البقعة التي ينتهي عندها السباق، وحين وصل، كانت يد عثمان مشرعة في الهواء، صرخ: عثمان. وحل صمت، وهبطت اليد بعزمها تصفع الوجه المغلوب الذاهل، دوت الصفعة وسط الصمت الذي يحاصر البقعة المحيطة بهم، بينما هناك، في قلب أرض السباق، كانت فاطمة تحتفل بانتصارها السهل.

إلى أين تمضى الحكاية؟ وأيّ منزلقٍ تجرى نحوه؟ وما القصد؟ وهل عليّ أن أسايرها، أم عليّ أن أضع ضوابط صارمةً تنحو بالحكاية إلى القصد الذي أريد؟ ثم ما هو أهم، أأعرف أنا أي قصد من الكتابة، أم تراني أخط خطوطًا عامةً فقط، ويحدث الانحراف عنها بانتظامٍ تامٍّ و شاملٍ؟ هل الأمر أبعد من ذلك؟ لا أحب أن أفكر في الأمر بطريقةٍ ميتافيزيقيةٍ، لكن في بعض الأحوال يجب الإيمان بالجزء الغامض من العقل، والذي لا نملك حياله تفسيراتٍ منطقيةٍ واضحةٍ وصريحةٍ. كنت غارقًا في تساؤلاتي حين جاء عيد وجلس بجواري، قال: رحت لحد فين؟ تنبهت من شرودي، ومحاولتي الدائمة في متابعة كل ما يجرى حولي، قلت: في رسومك وخطوطك. وأشرت للحوائط، ضحك عيد، وكان ضوء الفانوس الخفيض، قد دفع الرسوم للتعملق، ومغطيًا إياها بطبقةٍ من الغموض الذي أكسبها إجلالًا فائقًا، ظننت في لحظةٍ أنها على وشك التحرُّك، والهبوط من الحوائط، كي تشاركنا قعدتنا فوق الدِّكك، بقلبِ هدا الدِّيوان العتيق، والذي دافعت العمَّة عنه، ضد الكهرباء وضد احتياجها لاستخدامه في سنواتها الأخيرة لقربه من الباب، كنت أرى أننا جزءٌ من الصور التي تلف حوائط الديوان، أو هي جزءٌ منَّا، رأيت كأنها تنظر إلينا، تتأملنا في حال الحركة، أو حال السكون، أو كأننا نحن ذاتنا صور ورسوم وخطوط على حائط، هي الأصل المقيم ونحن الأثر العابر، والذي حل ضيفًا لمدة ليلةٍ سينصرف بعدها، كما هي حال الغريب، نمضي، كلٌّ لحال سبيله، متفرقين بين دروب الحياة

المتشعبة، وتعود الرسوم إلي سابق حالها من الهدوء والوحدة والإقامة الهادئة.

قال عيد: حظ هذه الرسوم أفضل من تلك التي بالخارج، حيث تتعرض -تلك- للشمس فتبهت ألوانها، ويكسوها الغبار، ويقصر أعمارها. فقلت مقاطعًا: يعنى أنها رسوم قديمة؟!

- أنا وجدتها كما هي الآن، وحين سألت والدي، قال أنها موجودة من قبله، لكنني أذكر وأنا صبي ساعدت والدي في إعادة تلوينها، بنفس الألوان الأولى.

- كنت أتصور أنك رسمتها!

- وأنا أتخيل نفسي كذلك.

ضحكت، وأنا أحاول تقدير الزمن، وشطَّ تفكيري، دون أن أملك يقينًا قاطعًا، ربما تكون من الرسوم الأولى، أيام الرحال الكبير، وعيد الأول، وكأنما عيد يقرأ أفكاري، قال: يبدو أن الجد الأول هو من رسمها، ثم قام بعض الأحفاد بإعادة التلوين، كما فعلت أنا.

دخل الغريب من باب الديوان، تبعه محمدٌ وهو ينفخ سيجارته، ورغم الضوء الكابي بدا لي عصبيًا، جال بعينه على الدكك، والغريب راح وجلس بجوار عوض الله، في موضِعه السابق، ومحمد ذهب نحو العم المتكئ على عصاه، وللمرة الثانية داهمني إحساسٌ بأنَّ ما أراه الآن سبق وشاهدته بين

الرسوم، رفعت عيني للحائط المواجه لي، كان شابٌّ حائرٌ يتحرك بين قافلةٍ، يريد الوصول لسيدها الذي على جَملِه في المقدمة، وكان تدافع، وعيد وقف وهو يقول: الليل سرى. وقفت وهمستُ بصوت منخفض نوعًا: ليالي العيد، كل سنةٍ وأنت طيب. ضحك عيد واكتست ملامحه بخجلٍ رقيقٍ، قال: عقبى لك.. وعقبى له. وأشار إلى محمد الذي كان في هذه اللحظة يجلسُ بجوار عمِّهِ وقد وضع يده على كتفه، صعقتني المفاجأة، قلت في نفسي: يعلم ما يجول في خاطره، أم ترى محمد قد أخبره، خاصةً وأن محمدًا كان يتودد إليه منذ قدومه؟ ربت عيد على ذراعي وهو يقول: لا تشغل بالك، تصبح على خير. ومضى خارجًا، وأنا جلست مبهورًا، وعيني جرت للرسوم، وكان شابٌ قد توقف بجوار فتاةٍ، لم تكن موجودةً قبلًا، وكانت يده ممدودةً لراكب الجمل: سيد القافلة.

حملت زينب الفانوس وراحت للنخلة التي تناديها، فكرت بأمر النخلة المُحيِّر، يقال أن الجد هو الذي زرعها حين بدأ في بناء البيت، لكن المدهش، أنها ظلت تتطاول رغم مرور كل هذا الزمن، لم تنجب تحتها أو حولها أية فسيلة، وما نبت من نواها -الذي زرع بأماكن بعيدة ومختلفة- أية واحدة، كان النَّوى يبق بالأرض إلى أن يفسد أو تأكله التربة، لم تكن النخلة تسمح لشيء بالإنبات حولها إلا الحشائش، النجيل، تتركه يفرش الأرض بغطاءٍ لين حولها، كي تسقط بلحها فوقه حين يأتي أوان نضجه. منذ وقت بعيد، حين كان الرجال يعمرون البيت، كان الاهتمام بها قائمًا، فيقلم ويقطع جريدها الزائد، ويوضع اللقاح، وتقطع سباطات البلح، لكن بعد الرحيل المتتابع، لم يكن لأحدٍ أن يركب النخلة، وهو ما كانت تحرمه العمة على أي غريب، حتى عيد، رفضت فكرة طلوعه النخلة ليلقحها، أو يجني بلحها، فهي كانت تعتبر أمر النخلة شأنًا عائليًا و غير مسموحٍ للأغراب بالخوض فيه، ومع ذلك استمرت النخلة بالطرح، وإلقاء البلح الناضج إلى الأرض النجيلية، كانت العمة تسمح في بعض الأوقات للنعجة والخروف بالرعي تحت النخلة، كي تقصر أعواد الحشائش التي طالت، لتصبح حصيرة طرية، متساويةً، لا تخبِّئ البلح تحتها حين تأتي العمة للمِّه، قالت لزينب: حين يستوي البلح، تصمت الريح تمامًا، ثم تأتي هَبَّةُ هواءٍ غاضبةٍ، تنفض النخلة نفضًا، وكأنما جاءت من أجلها خصيصًا، لم أسمع من أحدٍ حول هذه الريح، يحدث هذا ودومًا بالليل، بعد غياب القمر، وأنا بعد أن أصلي

الفجر، آخذ قفةً، يكون النور قد ملأ البيت، أذهب إليها وآخذ في لقط البلح الذي افترش النجيل، وعند شروق الشمس أكون قد انتهيت.

لمحت زينب شيئًا يتحرك حول النخلة، تقدمت بحذر وهي تفكر أن تنادي على أبيها، أو واحد من أبناء عمومتها، لكنها رأت النعجة والخروف يرعيان النجيل، توقفت، هي متأكدة من أنها أغلقت باب الزريبة جيدًا حين انفلتت النعجة وابنها عند المغرب، واستطاعت هي وعزيزة ردهما. اقتربت، وضعت الفانوس على الأرض، ونظرت لأعلى النخلة، كان كل شيءٍ صامتًا، وتذكرت أن البلح قد طاب، وبدأ جمعه من النخيل منذ فترةٍ.

كانت النعجة والخروف يرعيان بجوعٍ وهمةٍ عاليةٍ، وزينب تعجبت من أفعال حيوانات العمة، في البداية، حين توفيت العمة، كانت الدواجن راقداتٍ حولها، كأنها يحتضنَّها، وبصعوبةٍ استطاعت وعزيزة إبعادها وحبسها بالزريبة، أما قطَّةُ العمة فقد نطَّت للسَّطح، ورفضت النزول، رغم النداء الطويل والملح من زينب، كانت زينب تشعر بأن هذه الأرواح أصبحت معلقةً برقبتها، وجزءٌ من إرثها المعقد، كانت في كل صباحٍ، وقبل غروب الشمس، ولمدة أسبوعٍ كاملٍ، وهي تدخلُ الزريبة حاملةً الطعام والماء للدواجن الرافضة الاقتراب منهم، حتى بدأ الموت يطل على الزريبة فارضًا رحمته النهائية، وعزيزة التي تتابع بصمت، صرخت: حرام، على الأقل نذبحهم. لكن وريثة العناد الأسري رفضت بحجة أن العمة لم تكن تقوَ على ذلك، ثم قالت بحزمٍ: لا يمكن خيانتها. عند نهاية الأسبوع كانت

القطة قد اختفت، والدواجن نفقت بالكامل، وبقيت النعجة والخروف بنظرة عيونهم الكسيرة.

انتهت النعجة والخروف من لقط الحشائش وتسوية أعوادها حول النخلة، نظرا لزينب التي حاولت الاقتراب، لكنهما تحركا عائدين للزريبة، تناولت زينب الفانوس وتبعتهما، كي تسد باب الزريبة المفتوح.

كان الحاج عثمان مستندًا على النبوت، مائلًا عليه، ومخفضًا وجهه كأنما يحاول تحاشي الافتضاح، بينما رغبة تتملكه في أن يمسك بسيل الذكريات المنسابة منه، يريد أن يوقفها ويتمعَّن فيها الآن وبعد كل هذه السَّنوات. كان اليوم الثالث للعيد، حين عاد الأب من غيابه، ولا يعرف أحدٌ كيف علم بما جرى، ولا بأية طريقةٍ نقل إليه الخبر؟!

في عصر ذلك اليوم كان كعادته وسط حلقة التحطيب حين أتاه الخبر: مصطفى تقدم لينازل فاطمة، ابن العم يتسابق مع أخته. توقف متحيرًا، واهتزَّتْ يده القابضة على النبُّوت، وهاجمه السؤال: هل ستمتد يده على ابن عمه، إن فازت فاطمة؟ وجد نفسه ينسحب من الحلقة، البعض ظن أنه ذاهب للإبرار بقسمه، وهو كان يبغي الاختفاء، وأن يحدث الأمر بعيدًا عنه، كأنه لا يعلم به، لكن الآن، العيون التي تحاصره تخبره بأنها تعلم، وأنه يعرف، وإن كان قد مدَّ يده سابقًا وصفع قبل أن يتدخل أحدٌ لمنعه، فعليه أن يكمل.

أوقفته الحيرة على حوافِّ الحلقة، لا يدري على أي نحوٍ يتصرف! ما الذي دفع مصطفي لهذا الفعل؟ كان يكفيه وهو ابن العم، أن يتقدم خاطبًا، ولن يجرؤ أحد على رفضه، لكن القسم الأول بأن تتزوج فاطمة بمن يتفوق عليها بالسباق، هل كان للإخوة التغاضي عن الشرط؟ والآن، أهو مطالَبٌ بالحنث في يمينه أمام ابن عمه؟ في دخيلته يتمني أن تنهزم فاطمة، وتنقذه من الشَّرَك الذي يلتف حوله، وذلك الرجل، ماذا كان اسمه؟ وهل هذا

مهم الآن؟ ماذا سيكون موقفه وموقف عائلته، إن تخاذل عن تنفيذ يمينه، لو خسر ابن العم؟

كان يتقلب في نار القلق والترقب، يود لو يكون هناك بقلب السباق ليمنع هذا السباق، أو يرى النهاية بدلًا من الانتظار القاسي هنا، نهاية السباق التي ربما تكون نهايته، أو عليه أن يسارع بالابتعاد، وجاءه الخبر طائرًا: فاز مصطفى. غمرته فرحةٌ، فرفع النبوت ودخل الحلقة راقصًا على أنغام الربابة والمزمار والنقارة، كان والد عوض الله هو القائد بالربابة، الذي أدرك الحال، فأبدع ألحانًا من أجل فرحة العجبان، الذي يرقص بعصاه كما لم يرقص من قبل، وأخرج نقودًا وأعطاها نقوطًا لولد عوض الله، وسمى الرقصة باسميهما؛ مصطفي وفاطمة. ورأى أن ذلك نهايةً حكيمةً، وظل بالحلقة يلاعب كل من بالحلقة ويمازحهم، وعندما عاد للبيت لم يكن يعلم بعودة الوالد، كان أذان المغرب يلعلعُ في سماء العيد والسرور الطَّاغي يتقدمه ليدخل البيت، فوجد البندقية في انتظاره ومعها قرارٌ بالطرد، في البداية لم يفهم فتراجع منسحبًا، ثم قرَّر مغادرة البلدة، وكان بداية للعقد الذي انفرط.

أفاق من تهويمه على يدٍ تهُزّ كتفه برفقٍ وصوتٍ يحمل نبرة سخرية يقول: كَثُرَ شرودك يا عم. تراجع بظهره لمسند الدِّكَّة، وهو يحاول تمالك ذكرياته، التي تنفرط رغمًا عنه، قال: أبدًا. كان ابن أخيه محمد، فالتفت ناحيته وهو يقول بصوتٍ أكثر عمقًا واستقرارًا: خير.

وهي عائدةٌ لمحت عيد يغادر البيت، لم تتوقف، بل تقدمت نحو حجرة العمة، والرغبة ضربت جوانبها، أرادت الاختباء، وأن تنسى عدائها تجاه عيدٍ، قالت لها العمة: ما ذنبه؟ وكانت قد تعلقت بحجة أنه فألٌ سيءٌ. لم تبرحها تلك الفكرة، رغم صداقة عزيزة، ومحاولاتها الدائمة لتبين أسباب الكراهية، وما كانت بقادرةٍ على التوضيح، كانت فقط تريد أن تصب غضبها على أحدٍ، أيِّ شخصٍ، وكان هو أمامها، صديق سعيد، ومبيض حجرة زفافها الذي لن يتم، الآن تتساءل: وهل هذا كاف؟

دخلت من الباب وعلقت الفانوس، وهمَّت بخلع الجلباب، وتذكرت ما جرى عند المغرب، فتركت الجلباب، وركبت السرير ذا الأعمدة، الذي أنَّ وأصدرت مفاصله لحنًا، جعلها تسكن، كان اللحن راقصًا، داعرًا، كأنما يتذكر اهتزازات تعطلت داخله، تبسمت وهي تضع رأسها برفقٍ على الوسادة، وشمت رائحة التراب الناعم المتراكم فوق السرير، فهبت رافعةً رأسها، والسرير تجاوب مع الحركة مُصدرًا ألحانه، وخيَّل لزينب أنها عالية، وربما سمعها من بالديوان، ورأت نظرة الغريب، فأحسَّت بالفضيحة تحدِّق بها، فنزلت بسرعةٍ، وسمعت ضحكة تتردد حولها، لكنها لم تهتم، تناولت حصيرًا مركونًا بجوار الحائط، وعلى الأرض فرشته، وسحبت الوسادة وألقتها على طرف الحصير، وهي تتلفت حولها، وترهف سمعها للأصوات القادمة من الديوان، فجاوبها صمت عميق، فردت جسدها الفارع على الحصير وهي تقول: بسم الله.

- هذا البيت يجب أن يظل مفتوحًا.

قال محمد وهو يحاول رفع صوته، كي يداري الاضطراب الذي يعتمل داخله، والعم الذي سمع هذه الأقوال كثيرًا، كلما جاء واحد من إخوته، أو من أبنائهم، أو الأقارب، يقولون نفس الشيء، الحلم الذي يسيطر على الجميع، الخوف على ذكرياتهم القديمة من الاندثار، أماكن لهوهم، ونضج مراهقتهم، يدفعهم الحنين، ونية تبزغ حين تواجدهم، سرعان ما تتوارى عندما ينصرفون، يضعون خططًا لن ينفذوها أبدًا، فقط الحلم يظل باقيًا: أن يبقى البيت مفتوحًا. لكن كيف؟ لا أحد يجيب، أو يأخذ خطوة صادقةً، وعثمان الذي ملَّ من كثرة التمنِّيات هذه، كان يضع العقدة في المنشار، يقول ببساطةٍ ووضوحٍ: تعالى اقعد فيه وافتحه. بالنسبة له كان الأمر منتهيًا، حين عاد من تغرُّبه كان قراره واضحًا في عقله، بنى بيتَه في الطرف الثاني من البلدة، لم يكن يرد على الإهانة القديمة، الطرد، لكنه كان يحسُّ بأن روحه لا تحتمل هذا البيت، كان يقول لنفسه: غير مسموحٍ لي بالتواجد هنا. وعناده كان صافيًا، دون ضغينةٍ أو كرهٍ. حين جاء أول مرةٍ، عقب وفاة الأم، كان الأب قد مات منذ فترةٍ بعيدةٍ، لكنه أصرَّ على عدم المجيء، رغم علمه، قال وقتها: القسوة أهم ميراث. لم يكن قادرًا على الغفران، لكن يوم الأم جاء يجره الحنين، ويقينه بأن أمه خارج حسابات الطرد، لذا لم يحضر زفاف فاطمة، ولا عزاء فاطمة الأولى، الجدة، دخل البيت وشعور بالانقباض يمضه، لم يقدر على البقاء أكثر من دقائق، قدم فيها عزاءه للأخت، ورحل بصمت إلى الساحة أمام البيت، لم يذهب للديوان ليقعد مع الرجال

وإخوته، قال أريد دكة هنا، والإخوة ورجال العائلة العارفون بالموضوع لم يجادلوه، وبدل الدِّكَّة الواحدة أخرجوا ثلاثة، كل يتلقى العزاء ويبيت الليل بالخارج.

- طيب، تعال، وافتحه..

رد الحاج عثمان، مستشعرًا قلق ابن أخيه، والذي كانت أطرافه ترتجف.

- لوحدى! لن ينفع..

قال محمد وهو يقلِّب الكلام ويفتح أبوابًا، يسهل لنفسه الدخول منها، لكن العم أراد أن ينهي وجع الدماغ من هذا الموضوع المتكرر، فقال بحزمٍ: والمطلوب؟

شعر محمد بأن العمَّ يضيق الخناق، فقال: أريد الزواج بزينب. وتنهد كأنما أزاح عبئًا جاثمًا على صدره، وبقي في انتظار الرد.

بُوغت العمُّ بالطلب، فرغم أن هذا الحدث يريحه ويُسعده، ويضع حدًا لقلقه على ابنته، لكنه ومنذ فترةٍ طويلةٍ، كان الموضوع قد أُغلقَ، حينما أصرت زينب على رفض كل من يتقدم لها، كانت تقول: حظي وجربته. وكان يعرف عناد رأسها، لكن الجديد، أن الخاطب الآن هو ابن العم، وليس بغريبٍ، كما ردت عليه ذات مرة بأنها لن تكون زوجة لرجل لا تجري به دماء الرحال. كان على العم أن يتروى تحسبًا لرد زينب، كان يشق عليه

أن يراها وحيدة في الحياة، وهو طال العمر أو قصر، سيفارقها، والأب لا يحل محل الزوج أبدًا.

- لا مانع عندي.. إنما..

- ماذا؟!

قال محمد متعجلًا، فإنما التي توقف عندها العم تفتح أبوابًا عريضةً للرفض، وساعتها يسقط الحلم الذي رآه وهو مشردٌ بالبلاد، أراد أن يُكلِّم عمه عن الحلم، وإعادة لمِّ الشَّمل، وتكوين العائلة بشكلٍ جديدٍ.

- القول لابنة عمك، هل نجبرها يا ابن المدينة؟

ارتاحت نفسه قليلًا، وتغافل عن حسِّ السُّخرية، قال: خبرها الآن يا عم.

- لم تطر الدنيا.. الصباح رباح.

وقف العم، وقال: تصبحون على خير. وقف عوض الله والغريب، ومحمد وبعض الذين بقوا متيقظين، خطا نحو الخارج، تبعه عوض الله والغريب، لكن العم أشار للغريب كي يجلس، فجلس، وخرج العم يصحبه عوض الله، وتبعه محمد والبشاري، حتى باب البيت الخارجي، ثم ردَّا الباب الكبير، وعادا للديوان.

جاء محمد وجلس بجواري، وبوادر البشر تهلُّ من وجهه، قال: طلبت يدها. قلت: أعلم. فهزَّني مستفهمًا، قلت: أنني أكتب الرواية. فصمت، أردت أن أقول له، أني تعبت، وأريد الانتهاء، ووضع القلم عند هذه النقطة، لكنه قام من جواري وراح للدكة المجاورة وتمدد فوقها.

كان الجميع قد رقدوا، فقام مجاهد البشاري، وراح نحو الفانوس وخفض شعلته، أردتُ أن يظلَّ النور قليلًا، كي أتمم الفقرة التي بدأتها، لكني آثرت أن ألملم أوراقي، وأضعها تحت المسند الذي حولته لوسادة، اتكأت عليه وأنا أشعل سيجارةً، ورحت أفكر في الأحداث التي جرتْ، فجافاني النوم، قلت غدًا يوم طويل وعليّ أن أنام الآن، أرجأت التفكير، وبدأت ألاعب الأرقام في ذهني، كي يأتي النوم سريعًا، وحين بدأت أخوض في مياهه برفقٍ، خُيِّل لي كأنما هَبَّة هواءٍ تنفض النخلة، وأن بلحها يتساقط على الأرض النجيلية، قررتُ أن أقوم لأتأكد لكن النوم كان قد جرَّني لمياههِ العميقة.

الولد لئيم، غويط. قال عوض الله وهو يسير بجوار الحاج عثمان، الذي يتحرك وعقله يجرى بعيدًا، يطارد خيالات دون القبض عليها جيدًا، فسرعان ما تنفلت منه وتُولِّي هاربةً، قال دون انتباهٍ: الديون لا تسقط أبدًا. وعوض الله الذي يعرف الحكاية القديمة للصفعة، فهم التلميح، وعرف أن الحاج ليس معه، بل في وادٍ بعيدٍ، فآثر الصمت.

كان عليهم عبور شوارع البلدة المتعرجة إلى الجهة الأخرى، كانت بعض الأعمدة تبدد الظلمة وتجعل الرؤية معقولة بالنسبة لعجوزين يسيران دون حوار يقصر الطريق، عوض الله سرح في عالمه، الذي طرده خارج حضرة الحضور والوجود وأصبح على الهامش، هامش الحياة. في ليلة كهذه، يكون سيد الليل، يقصُّ حكايات الأبطال، وتواريخ أيامهم، كل هذا انقضى ولم يتبق له إلا حلقات التحطيب التي تُقام في بعض المواسم، على هامشها يقف هو واثنان من أبنائه، يعزفون فقط، دون غناءٍ، فالذي يُغنِّى الرجال وعِصيُّهم داخل الحلقة، يعزف من الذاكرة بدون حس أو مشاركةً فعَّالةً، أحيانًا يتدخل لتصيح نغمة، أو يضبط إيقاعًا، في الماضي كان صوته يلعلع، أما الآن لا صوت ولا غيره، حتى الربابة تظل بالشهور في جرابها الأسود دون أن تُمسَّ، الجراب معلقٌ في مدخل البيت، يشعر أنها أصبحت حرزًا، أو حجابًا، لا يمكن الاقتراب منه، فقط يمكن النظر إليه بتحسرٍ وتمنٍّ، وكلاهما مُوحشٌ وشاقٌّ؛ ضحك عوض الله في سره قائلًا: لم يعد زمننا هذا يريد البطولة، أو يرغب في سماع حكايات الأبطال. وداهمه سؤالٌ: هل يوجد أبطال الآن؟ ولكي يهرب من مواجهة السؤال، نظر للسائر بجواره.

الحاج عثمان ترمح به الأيام، يجرجره منطوق الذكريات، وما كان قادرًا على ردعها، والصمت سلاحه الوحيد، هو وقبضته العفية على نبوته الذي ما خذله يومًا، يتوكأ عليه كي يتماسك؛ في واحد من الشوارع المتفرعة انحرف عوض الله متخذًا الشارع نحو بيته، رفع يده بالتحية، لكن السائر أكمل مسيره دون أن ينتبه، كان وحيدًا في الظلام، يدبُّ على الأرض بنبوته الغليظ.

في الصباح كانت حلقتنا قد تجمعت، استعدادًا وترقبًا، لا ندري من الذي سرب الأخبار، ولا على أية كيفية فشا خبر الغريب؟ فساحة الولي الفقير لم يبق بها موضع لقدم، كل هذا الحشد من بلدتنا والبلاد المجاورة، حتى البنادر البعيدة أقبل منها ناس؛ أفنديات وتُجَّارٌ وحكومةٌ. الكل ترك ما يشغله وجاء للَّساحة، حتى الذين يأتون لزيارة موتاهم أجلوا الزيارة إلى بعد انتهاء الواقعة.

كانت الشمس قد خرجت ساخنة منذرة بيوم ملتهب، فتهلَّل باعة السوبيا والمشروبات الغازية والبيرة، وأصحاب الغرز بكافة أنواعها، وما كنا قادرين على ردع أحدٍ، أو حتى المغامرة بطردهِ، كان الوضع يفوق حدود التوقُّع والتصور، لو قلنا كأنه يوم الوقفة، وقفة عرفات، سيكون الوضع أهون، فهذا اليوم طويل ولا نعرف على أي نحو سينتهي، والجدل دائر. لكن من الذي قام بنشر حكاية الغريب، وهزيمته المنكرة للاعبينا؟ كانت الشَّماتة في العيون لا يمكن إنكارها، نعرف الآن على الأقل أن بين الغريب وعثمان ثأرٌ قديمٌ، صفعةٌ ما يزال يرنُّ وقعها رغم مرور كل هذا الزمن، عثمان لم يبُحْ لأحدٍ، والغريب لم ينطق، فقط رفع عصاه وأشار لعثمان، لكن الصفعة تصرخ الآن مطالبة بردِّها، لكن ما يهمنا؛ أنه ليس لنا ذنب فيما حصل سابقًا، حتى تنال حلقتنا هذه الإهانة غير المستحقة، كان يكفي الولد، الغريب، أن يطلب منازلة عثمان، ويرد له الصفعة، إن استطاع الفوز عليه، ويا دار لم يدخلك الشرُّ، لكن صفعةً قديمةً في برجاس الخيل، تقابلها الآن واحدةٌ في برجاس العصا، ودون أن نكون طرفًا فيها، فهذا غير عادلٍ.

غبارٌ ملتهبٌّ يلف المكان بفعل حركة الأقدام البطيئة على الأرض الترابية، يدوم الغبار فوق الرؤوس المشتعلة بالانتظار، الكل يتدافع كي يكون قريبًا من حلقة التحطيب، والتي حددنا ومنذ الصباح الباكر حوافَّها، وأقمنا بعض الشباب القويِّ حراسًا عليها، حتى لا تضيق الحلقة ولا تصلح للتباري. جاء عوض الله الحلبي وفي يده جرابه الأسود الذي يحمل داخله الربابة، خلفه كان الولدان؛ واحدٌ بالنقارة والثاني يمسك بالمزمار. وما كنا لنغفل عن هذا، فمهما كانت مشاغلنا والأخطار التي تحدق بنا، لا يمكننا التغاضي عن أيِّ شيءٍ بسيطٍ من مستلزمات الحلقة، وإلا صارت جرسة، وعلامة شؤمٍ، قد تسرع بغلق حلقتنا، التي نحاول -رغم هذه الهزَّة الطارئة- أن نعيد لها بهاءها ورونقها المعروفة به بين حلقات الدنيا من حولنا.

بينما نحن في انتظار قدوم عثمان والغريب، شاع خبر: الغريب صعّد من الرهان. قلنا: الولد لا يريد لها أن ترسو على برٍّ، ما الذي يبتغيه من وراء ذلك، ألا يكفي ما جرى بالأمس؟ وسألنا: ماذا يريد هذه المرة؟ قال الخبر: أن يكون الرهان مطابقًا لما جرى في الزمن البعيد. فضربنا كفًا بكفٍّ، فما يحدث لا يمكن تصديقه ولا تحتمل وقاحته، وهل بناتنا موضع رهان؟ قال الخبر: انتظروا، عثمان من وضع الشروط سابقًا، وجعل أخته فاطمة موضع رهان، الآن الغريب يطالب بتكافؤ الحالة، وبدلًا من فاطمة، تكون زينب؛ فإما أن يقبل بزواجه من زينب، أو يتلقى الصَّفعة أمام الجميع. لم نحر جوابًا، ولم نكن لنجادل في أمر لا يخصنا، المهم هو حلقتنا أن تظل بعيدةً عن

تصفية الحسابات. وهكذا بقينا في انتظار قدومهم، والوليُّ الفقير في قُبَّته من فوق الجبل شاهد علينا.

كِتابُ العَصَا

مدفوعًا بحميتِه ونبض الرجولة دخل المعركة، كان يمكن أن يغض عينه، ويتابع شرب الشاي الذي أحضرته نعيمة، ويظل يتملى جسدها الريَّان كلما أقبلت أو راحت، تًلبي طلبات الزبائن القليلين، لكنه عند لحظةٍ لم يعد قادرًا على كبحِ حميَتِه، رفع نبُّوته وهدر بصوته القويِّ، وهو يطوِّحُ عمامته على الدِّكَّة الجالس عليها، مقتحمًا الخناقة الضيقة.

الوقت ضحى، والشمس تضرب الأجواء الجنوبية بقوةٍ، وعُمَّال الميناء يأتون الغرزة، البعض يتناول إفطاره وكوب الشاي أسود وثقيل، والبعض يدخن حجارة الجوزة كأنما يحاول القبض على أنفاس الدنيا، أصواتٌ خافتةٌ تتردد هنا، بينما الحركة مُستعرِةٌ في الخارج، حيث وقف أحد الصَّنادل ومدت السَّقَّالات، فوقها رمح العمال بأحمالهم وكأنهم يرقصون، لا يعرف وهو الرائي من مكمنه هنا بقلب الغرزة المُطلَّة على الميناء، يرقصون بفعل الثقل الذي فوق أبدانهم، أم بفعل الجري وراء لقمة العيش القاسية والصعبة، كأنما يحاولون تحلية مرارة أيام الصَّيف الطويلة الفقيرة من أعمالٍ بديلةٍ؟ غبارٌ يتصاعد هناك من بين أقدامهم ويدوم فوق الرؤوس، وهنا غبارٌ رماديٌّ بفعل الدخان ورائحة نعيمة التي تخيم بقلب الغرزة.

يأتي الرجال للغرزة مدفوعين بحاجة الجسد للحظة راحة، واختلاس النظرات من جسد نعيمة، من تحت لتحت، فهم يعرفون أنها ملك يمين المعلم حربي، فتوَّة الميناء، وليس لديهم الطاقة لمواجهته، أو حتى مواجهة نعيمة ذاتها، فهي قاسيةٌ شرسةٌ، كلمةٌ واحدةٌ، والثانية، تكون شخرتها قد

رنت بقلب الميناء، والذي لا يتفرج، بالتأكيد هو بعيدٌ، إذًا فليسمع: إيه.. يا روح أمك. ثم ينفرط عقد اللسان بالكلمات التي لا يقوى الرجال على تحمُّلها، وهم من المؤكد لم يسمعوا بها في قراهم البعيدة، حيث نساؤهم لا يعرفن هذه الكلمات، هكذا يتخيلون، فقط يستكنَّ لظل الرجل الذي هو أفضل من ظل الحائط، المعني به الأب. كلهم في أحلامه يشتهيها، يأتي ممنيًا نفسه بلحظات بالتفرج على الجسد البهي، دون تنغيص من أحد، لذا يلزمون الصمت، كأنما يدخل في صحبتهم، يبقون وعيونهم على الجسد داخل الفستان المحبوك، وكأنما فصل عليه، وخيط بدقةٍ و نعومةٍ مرهفةٍ، سامحًا لكل الانحناءات والاستدارات بأخذ حقها من البروز والتحدي الوقح، هذا غير ما تتفنن نعيمة في وضعه، من كحلٍ وحناءٍ وخمرةٍ ودلكةٍ تجلو الجسد وتجعله مشدودًا مرنًا، وروائح الصندل والمحلب التي تتبل البدن وتعطره، فيخرج عند الصباح مشعًّا ريانًا، يهب اليوم بسمته الطازجة، ولتذكر العمال بقسوة أيامهم، وضياعها هدرًا، دون أملٍ في شيءٍ محدَّدٍ، فقط رغبةٌ وتعطشٌ من الأفضل كتمانهم، بدلًا من التعرُّض للسانها الذي يأتي بالبعيد الغائب، وما هي إلا لحظة وتكون يده العريضة قد أطبقت على من رماه سوء طالعه الصباحي عرضةً لجسدها ولسانها؛ يتولى المعلم حربي توضيب الزبون، قليل الأدب والتربية، وتقف هي عاقدة يديها على خصرها، وترقص أوراكها، ووجهها المكتنز يضحك بشراسةٍ متشفِّيةٍ.

حين تراجع مصدومًا، مطرودًا، لم تكن لديه وجهةٌ محددةٌ يقصدها، لكنه تحرك خارجًا من حرم البلدة، دون أسى أو إحساس بذنب، خارج حدود

البلدة لحِقَ به ابن عمه، وزوج أخته، بعد أيامٍ قليلةٍ، مصطفى، حاول إثناءه عن فكرة الرحيل، متعللًا بأن المغادر لا يعود أبدًا، لكن عثمان قابله ببسمةٍ حاول قدر إمكانه أن تبدو واثقةً، ومتشبثًا بحائط الإصرار والعناد، ولما يئِسَ مصطفى دسَّ في جيب ابن عمه نقودًا، وارتدَّ عائدًا، وهو أكمل طريقه، حيث جرَّته الدروب تجاه البندر، فكَّر بواحدٍ من المعارف، التُّجَّار الذين يتعاملون معهم، وهم بالذهاب إليه، وبطول الطريق، وعبر التروي والتأمل، قرَّر بأنه لا فائدة من الحبال القديمة، التي يريد قطعها تمامًا، عليه أن يبدأ حياته الآن وبشكلٍ منفردٍ وبعيدًا عن غطاء العائلة، كان الطريق أمامه طويلًا وكافيًا كي يتدبر أموره بهدوءٍ.

وكأيِّ غريبٍ وتائهٍ، جذبته الأطراف البعيدة للمدينة، وكان الميناء وزعيق العمال وحركة فائرة تجري بالمكان، فكَّر بأنه مكانٌ مناسبٌ لشرب الشَّاي وعدل دماغه التي صدعتها الشمس وطول المشي، وبجوار مدخل الميناء وجد غرزةً صغيرة، دكَكٌ رُصَّت قرب المدخل مفروشةٌ بحُصْرِ الحلفاء، وبقع ظلالٍ ينشرها الخيش، وغرفةٌ ضيقةٌ جعلت نصبةً تقع في المواجهة. في البداية لم يلمح الفتاة التي توزِّع الطلبات، كان عقله مشغولًا بهمومه، وتدبير أحواله، لكن عندما اقتربت منه، ضربته رائحتها، وجاءه صوتها الذي به بحَّةٌ خشنةٌ زادت من حسنه، قالت: أيوه.. يا عيني. رفع العين، ليرى الجسد المتحفِّز والمستتر بكسله الناعس، فأنَّت أحشاؤه، وأراد الوقوف، فلم يقوَ، كانت صدمة حواسِّه أقسى من أن تتركه يتنهَّد، أو يحرك أيَّ عضوٍ فيه، والصبية لم تمهله، بل تحركت لتلتقط الأكواب الفارغة التي

تركها الزبائن، وتخلع جسدها وارتجَّ، وهو شعر بالخطر يحاصره فشدَّد من قبضته على نبُّوته، قال: شاي. وخرج الصوت همهمةٌ أقرب للهمس منه للكلام الحيِّ، ورنت ضحكةٌ خليعةٌ، تُجَرجِر أذيالًا تعلق رقاب الخلق بها، وشعر بأن الهواء حوله كأنما نقص، وضيقٌ يطبق على صدره، فزعق بالكلمة، كمن يرمي حجرًا: شاااي. وكانت تلفُّ عائدةً إلى النَّصْبَةِ، فالتفت إليه وقالت بغنج واضح: يا باي.. وعرف أن قدره أصبح مربوطًا هنا، وبصعوبةٍ شرب الشاي، لم يشعر له بمرارةٍ أو حلاوة، فقط سخونة تنزل لتهري أحشاءه المتَّقِدَة. وبخشيةٍ من الافتضاح قام، لينهك قدميه في البحث عن غرفةٍ تلمّ بدنه، شريطة أن تكون قريبةً من الميناء.

في كل صباح، عند الضُّحى، يأتي للغرزة، يقول الكلمة التي درَّب نفسه عليها طوال الطريق: شاي.. شاي. ينطقها بشكلٍ محُايد، لكن بدقَّةٍ ووضوحٍ لا يفصح عن أيِّ رغائب تعتمل ببدنه، يبقى لمدة ساعةٍ، ثم يمضي لحاله، محاولًا السيطرة على الانفلات المتسارع داخله، يدور طويلًا بشوارع المدينة ليعود للغرزة في ساعة العصاري. في يوم جاء أحد العمال وجلس بجواره، وسأله إن كان يريد العمل معهم، انتفض قائلًا وكأنما يفيق غضبًا من حلمٍ بديعٍ: شيال.. حمال! والرجل كي يعتذر عما قال ترك له الدِّكَّة وقام، أراد أن ينادي عليه ويخبره: من يرضى أن يصير خادمًا عند أحدٍ يظل طوال عمره خادمًا، وهو.. هو..! وكان الجلُّ قد ابتعد، وكانت نتفٌ من حكايات الميناء قد تناهت إلى سمعه، وملكته رغبة في رؤية المعلم حربي، ولم يكن يدرى أن أول مرَّةٍ هي آخر مرةٍ سوف يراه فيها، وهي ساعة الخناقة.

كان في مكانه مواجهًا للنَّصْبة، مترصدًا حركات نعيمة، حواسه تناديها، حواسه التي تعذبه طوال الليالي في غرفته الضيِّقة المظلمة، لحظاتٌ كثيرةٌ تضربه الحسرة لتبدل أحواله والضيق الذي يعانيه، تزين له نفسه العودة والخلاص من هذا البؤس، لكن ما أن يغمض العين ويرى لحم نعيمة يخايله، ويترجرج مناديًا، وبحَّتها المثيرة تطنُّ بأذنيه، ودمه يقرصه ويتوجع لحمه، ليتراجع عن قرار العودة، ويظل ساهرًا، فلا ينام إلا مع مَقْدم النور، وما هي إلا لحظات حتى يهب ليلحق بمكانه المواجه للنَّصْبَة قبل أن يحتله أحدهم، وما أكثرهم.

في هذا اليوم جاء حربي، وخلفه ثلاثة من أتباعه يحملون النَّبابيت الغليظة، يهزونها بتبجُّحٍ واضحٍ، بدا حربي لعينيه قصيرًا نوعًا، أو أن بدانته الظاهرة قللت من طوله، كان مدكوك الجسد كزكيبةٍ مُحكمة الغلق، وإن كانت حركته مرنة، ملابسه نظيفة، تتدلى لاسته على كتفه، كأنها إعلان واضحٌ عن فتوَّته، وقوَّة جانبه. عند المدخل توقفوا، وصمت الجميع، وبعض الجالسين وقفوا، والبعض أخذوا في الانصراف السَّريع، وكان عاملٌ ضئيلُ الجسم يعطي ظهره لمدخل الغرزة، قد فكَّ منديله الأصفر الكبير، وراح يتناول إفطاره، تقدم واحدٌ من رجال حربي، ومسك الرجل من قفاه، وقبل أن يلتفت الرجل أو ينتبه، وجد نفسه مطوحًا، طائرًا في الهواء، ويده تقبض على طرف المنديل الذي تناثرت لقيماته القليلة، وانطلقت الضحكات، والرجل تكوم عند أقدام عثمان، ورفع وجهًا عفَّرهُ التراب، وكدمةً في جبينه كبسها التراب، والدموع على وشك الهطول،

ونظرةً ذليلة مهانةً وجهها لعثمان قبل أن يتمالك نفسه ويقف ويندفع تجاه الرجل الذي رماه، وهو يسبه بصوت خنقه البكاء، والرجل الذي كان يقهقه تلقَّاه بصفعةٍ قاسيةٍ، أَرْدتْهُ على الأرض ثانيةً، وسط الضحكات الشرسة الهمجية لحربي ورفاقه، ونعيمة لعلع صوتها مرحّبًا بالمعلم، وانتفض جسد الرجل المكوم على الأرض، لكنه لم يقم، وعثمان لم تدعه حميته، فهبط إلى الرجل وأقامه واقفًا، وقال وهو يرى وجه الرجل الذي يحاول ستره بين ذراعيه: عيب. وتقدم نحو الرجل ويده التي حمسها الغضب قبضت علي النبوت بقوةٍ، والرجل ضحك هازئًا، وهو يقول: إيه؟ مش عاجبك يا روح أمك.. ولم يمهله عثمان، ورفع النبوت محزمًا به الرجل من وسطه، لم يقل الرجل سوى: آه. وسقط.

كان ذلك إعلانًا كافيًا لبدء التقاتل، ابتعد الموجودون إلى الحوافِّ البعيدة للغرزة، والمعلم حربي رمى لاسته لنعيمة التي تلقفتها، وذهولٌ جعل جسدها يسكن عن اهتزازه، ولتختفي البسمة التي كانت تغمر الوجه المليء. تقدم الرفيقان ليحاصرا عثمان، والنبابيت تتطوح منذرة بالمجزرة المقبلة، وعثمان، العجبان، خلع عمامته ورماها على الدِّكَّة، وصرخ بصوته الهادر، وقال كأنه يضحك: يا مراحب. وتلاقت النبابيت في دويّ عالٍ جمع الذين في الجوار القريب حتى سدوا باب الغرزة.

كان عثمان يدرك أن عليه أن يتخلص سريعًا من الرجلين، حتى لا تنهك قواه قبل أن يواجه معلمهم الذي يقف متحفزًا، تلقى ضربة قوية، حاقدة،

وردَّ بأسرع منها، وزاغ من نبوتٍ موجهٍ مباشرة إلى رأسه، في نفس الوقت كانت عصاه قد ضربت الآخر في ركبته، فانحنى متألمًا، ليعطيه البراح كي ينفرد بالأول، الذي كان يهاجم بضراوة، وعثمان الذي ثبت مركزه، أخذ يتراقص، يستدير ويعتدل، يراوغ ويسدد ضربةً صائبةً عندما انكشف صدر الخصم حين رفع يديه عاليًا، هي لحظةٌ كان النبوت قد فعل فعلته، وأردى الرجل على قفاه، غير قادرٍ على القيام، بقي الآخر المتألم من ركبته، كانت حميته آخذة في الارتفاع، فزاغ من ضربة مهاجمه، واستدار بسرعة، أمامه ظهر الرجل مكشوفًا تمامًا، فعاجله بالنبوت أسفل ردفيه، صرخ الرجل متكومًا على الأرض، وبحذره اليَقِظ استدار عثمان قبل أن يغدر به حربي ويأخذه على خوانةٍ، مهاجمًا إيَّاه من الخلف.

ارتسمت بسمة مهتزة على شوارب حربي وهو يقول: اطلع برّا.. يا.. وكان يقصد خارج الغرزة التي سد بابها المتزاحمون، خطا عثمان، لكنه لم يعط ظهره لحربي، والرجل ضئيل الجسم حمل عمامة عثمان، وكان قد قفز فوق الرجل الذي صفعه، حين سقط، وانهال عليه صفعًا وركلًا وسبًا. كان المكان بالخارج متسعًا، ومناسبًا لمنازلةٍ نبتت فجأةً ودون قصدٍ، التفَّ الناسُ للفُرجة، ونعيمة بذهولها تقف ممسكةً بلاسة حربي، وبجوارها يقف حامل عمامة عثمان، وجهه ينطق بالبِشْر والحبور، ولسانه يلهج بشتيمةٍ مُقذعةٍ لحربي ورجاله، لكزته نعيمة بكوعها، فتنبه للجسد الذي يجاوره، فاقترب ملتصقًا به ولسانه كف عن إخراج حممه.

دارت المعركة، عصا هنا، وباب مسدود، وســـو.. عالية وممطوطة قالها عثمان، وحجل كأنه يرقص، أو لعله رقص كأنما يحجل برجلٍ ونصفٍ، والنبُّوت تراقص بين يديه متنقلًا بين الضرب والتلقي، وحربي لم يكن سهلًا، بل كان معلمًا كما يليق بفتوَّةٍ، كان يعرف كيف يراوغ، ومتى يسدد، وعثمان الذي رأى نعيمة بين المتفرجين، زاد اشتعاله، وتوهج جسده للقتال، وكثَّف من ضرباته، كانت قويةً وشديدة الإحكام، ومن الصعوبة تفاديها، لكن الجسد القصير المتين كان يعرف متى يبتعد ومتى يقترب، كان غرض عثمان هو إنهاك حربي قبل الإجهاز عليه، كان طوله وطول ذراعيه يعطيه أفضليةً في أن يهاجم، ويُبقي جسده بعيدًا عن نبوت حربي، وحربي العارف بفنون القتال ما كان ليغامر بالاقتراب، وكان على عثمان أن يلهيه كي يطمع وينسى الحذر الواجب فيقترب، فرقص مبتعدًا، وموسعًا من دائرة القتال، كان يصرخ: ســو.. ســو.. فيأتي الناس على الصوت واللمة المتكاثفة، كان يجره إليه، وحربي يحاول مجاراة الغريب الذي ظهر فجأة مهددًا مكانه وسطوته، ولاحظ أن الغريب يتراقص، لا يقاتل قتال الرجال، يريد أن ينهكه برقصه المتباعد، فقرر الانتهاء من هذه المهزلة، ويضع حدًا لهذا المتبجح، والذي لم يفلح أهله في تربيته، فصرخ وهو يتقدم مهاجمًا ومضيقًا المسافة التي سبق ووسعها عثمان، الذي استدار ليلاقيه، فواجهته الشمس في عينه، ومرت عصا حربي قريبة من رأسه، قال في نفسه: يريدني في عين الشمس، حتى لا أرى عصاه جيدًا، فتحرك بسرعة قبل أن يعاود حربي هجومه.

سخونة الأرض ولهيبها المتقد لم يقفا حائلًا، بل على العكس حفزا من الأجساد الواقفة وأججا الثارات السابقة والرغبة في التشفي، بينما الجسدان المتقاتلان قد كساهما العرق ولانت المفاصل. نط عثمان عاليًا ونزل جالسًا على ركبته، ومد النبوت بطول ذراعه، بقوة وسرعة لا تلحظ، كان النبوت يتحرك على ارتفاع قبضة من الأرض، فأصاب المقصود تمامًا، ذلك قبل أن ينتبه حربي للحركة المباغتة ويقفز من على الأرض جاعلًا النبوت يفوت من تحت قدميه، لكن النبوت كان قد بلغ مقصده عند مفصل القدم، بالتحديد العظمة البارزة، كانت الضربة قوية ولا يمكن تحملها، وصرخ حربي، وحاول أن يعرف قدمه المصابة، فاختل توازنه وهو يتراجع تحت ضغط الألم، فسقط على الأرض، وكان عثمان قد استوى واقفًا وهو يضرب نبوت حربي، فطار بعيدًا، عاريًا من دون حماية، وتزايد الألم يدفعه للصراخ حاول حربي القيام، لكن نبوت عثمان انغرز بصدره فرده راقدًا على الأرض ووقف عثمان فوقه، وهاصت الدنيا، وعلت الأصوات: تسلم يمينه.. عاش الرجال. ودقت مزيكا؛ نقارة كبيرة يصحبها مزمار وربابة. ورقص الناس حول عثمان وبعضهم حثا التراب على حربي.

خطفت نعيمة عمامة عثمان من الواقف بجوارها، والذي كانت يده الأخرى بدأت تتحسس جسدها، خطت نحو قلب الحلقة، وفي مواجهة عثمان وقفت، نظرت مباشرةً إلى عينيه، ثم رمت لاسة حربي فوق وجهه المعفَّر بالتراب، ووضعت قدمها فوق رقبته، تراجع عثمان قليلًا، مذهولًا من فعلها، رأى عمامته في يدها، فمد يده كي يأخذها، لكن نعيمة رفعت

يديها عاليًا حتى بان إبطها المنتوف في وجه الرجال، كان يضوي تحت الشمس الحارقة، ورنت أساور الفضة وهي تنزلق على الذارع الرخيصة، وهبطت اليد بالعمامة إلى الخصر وحزمته، والقدم التي على رقبة حربي تدقدقت كما الخيل، ورن الخلخال متجاوبًا مع المزيكا، وبدأ الرقص.

من أين جاءت المزيكا؟ ومن أخبرهم بالتقاتل؟ سؤال لن يعرف إجابته أبدًا، لكن ما يعرفه أن نعيمة ترقص أمامه الآن، ترقص له ولفوزه، تميل بجسدها كمهرةٍ عفيَّةٍ، ترقص أردافها وتهزُّ الصدر العامر، كل بدنها يرقص، حتى عينها، تتراقص ببسمةٍ شقيَّةٍ، تقترب منه وتبتعد، تمد إليه يدها كي يرقص معها، وصيحات الاستحسان تدفعه لقبول الرقص.

رفع النبوت المغروز في صدر حربي، الممدد بخزيه العظيم، طوَّح النبوت في الهواء، فاتسعت الدائرة، بدأ يرقص، كان يبتعد، يخشى الاقتراب منها، لكن جسده كان يسوقه نحوها، وهي ارتمت بظهرها على صدره، وهفهف شعرها فوق وجهه، فوجت في جسده النيران، فابتعد وهو يسندها بذراعه، كان يرغب بالهرب، ورأى الرجل الضئيل يضحك، وخايله وجه ينظر له بلوم وعتاب قاس، حاول التوقف عن الرقص، والتأكد من صاحب الوجه، لكن الوجه اختفى بين الجموع الحاشدة، فدار مقتربًا من نعيمة، والمزيكا في تصاعدٍ، ويشتد الرقص وتجن غرائزه، رفعت نعيمة يديها فصمتت المزيكا كما بدأت فجأة.

فكت نعيمة العمامة من حول خصرها، ورمتها فوق كتف عثمان، وراحت للمعلم حربي المكوَّم على الأرض وعند رأسه وقفت، كان ينظر لها بابتهالٍ ورجاءٍ عميقين، لكنها لم تنظر نحوه، ضربت على بطنها، ثم أنزلت سروالها، وعثمان واقف بحيرته، يتعجب من الأفعال التي لا يفهمها، ولا يدري مغزاها؟! جعلت نعيمة رأس حربي بين قدميها، وانحنت قليلًا بجذعها، وبيدها باعدت ثوبها الضيق والمحبوك على جسدها، ثم تبولت على رأس حربي، الذي وضع يديه فوق وجهه كي يحميه، أراد عثمان أن يوقفها، لكن الأذرع القريبة منه أوقفته.

ارتدت نعيمة سروالها وجاءت إليه، مدَّت يدها للعمامة المتهدلة على كتفه، شدتها حول رقبته وجرته نحوها، وقالت بصوت واضح سمعه المحيطون بهم: ياريت نبوتك يكون قوي.. زى قلبك. وهو لم يفهم، لكن الذين حوله قد فهموا التلميح، انطلقت ضحكاتهم مذيلةً بالتعليقات: عقبى لنا.. يا رب.

جرَّته نعيمة خلفها تجاه بيتها القريب، كان الوقت ظهرًا، وحين خرج كان المساء، وظلمةٌ قد كست الدنيا، وما أن تقدم خطوةً في الشارع حتى اصطدم بفوهة بندقيةٍ موجهةً لصدره، وصوتٌ محزونُ يقول: طلوقة.. يا ابن الكلب.

تكشَّفت الصحراء عن البهاء الأبدي، الذي تحتفظ به كواحدٍ من كنوزها العديدة، لم يكن من صوت سوى وقع أخفاف الجملين فوق

الصخور والرمال، وهواءٌ جافٌّ منعشٌ يسرى في الوادي، وسماء متخمةٌ بالنجوم القريبة والتي على وشك الهطول، جمل العم يسير متقدمًا وخلفه الجمل الذي يعتليه عثمان، الغارق في دنياه وأحواله، يبتسم لمفارقة البندقية في حياته، في البداية يرفعها والده في وجهه كي يطرده من البيت، والآن يأتي العم ببندقيته ويدكُّها بصدره ليطرده من أحضان نعيمة ودنياه التي أوشك على اقتحامها. حين خرج في الشارع كان جسده ما يزال مخدرًا، وآثار أظافرها وأسنانها حية وقوية ما تزال تنبض، حتى يوم مماته سيظل يتذكر أنها المرة الوحيدة التي أخذ فيها جسده حقه من المتعة والارتواء، في أي لحظة سيرفع فيها القميص ويرى علامتها التي حفرتها، والتي لن تنمحي، سيفكر بالطريقة والكيفية التي جرت، وكيف استسلم لحيوية فتنتها الطاغية، وبهاء الجسد البشري حين يفصح عن مكنوناته ويفتح مغاليق أسراره، دون خشية أو خجلٍ اعتباطيٍّ ينقص من قدر المتعة ويبخس قيمتها.

كان العم، عبد الله البشاري، قد نزل البلدة لحضور زفاف مصطفى وفاطمة، وعرف بالحكاية، وهاج في وجه ابن عمه، وعنفه بكلامٍ قاسٍ، وقال مصطفى أن عثمان ذهب للبندر، وفي أيام الفرح جاء ناس من المدينة، قالوا أنهم رأوه يمر بالشارع، دون أن يتوقف عندهم، أو يرمي السلام عليهم، وحين نادوه لم يرد، وكان عامل بالميناء أشار للغرزة، وبعد الفرح قاد العم جملين تجاه البندر، وعقلهم خارجًا، وراح للغرزة، وكانت الخناقة، وشاهد ابن أخيه يرقص بعصاه، وفتاة خليعة ترقص بين ذراعيه، ورجلًا

ممددًا على الأرض، والناس تتفرج، بقي بينهم، حتى قادت الفتاة عثمان إلى بيتها، فرجع للجملين، ومن بين الرحال أخرج السلاح، ورجع ليعسكر أمام البيت، وكان الليل قد حطَّ، ولم يشأ أن يقطع لحظة المتعة في حياة الولد، فكر أنها مكافأة و تجربة واجبة، وعندما خرج عثمان قاده تجاه الجبال البعيدة.

- تظن نفسك رجلًا؟!

قال العم كسرًا لحدة الصمت الذي يخيم، لم يشأ عثمان أن يجادل، لكنه تعجب من عدم اعترافهم به كرجلٍ ومع ذلك يرفعون السلاح بوجهه، وهل كان يملك أن يعارض في الحالتين الأمر الصادر، ببندقية أو بدون؟ أرخى اللجام من يده، فاندفع جمله مقتربًا، حتى وازى جمل العم، كان العم في سن والده، لكن بنية عوده كانت أنحف وأشد متانةً، وكانت الصحراء قد تكفلت ببشرته، فصارت داكنةً، وكأنما هذا واحد من شروطها كي تقبله داخلها.

- لم تفز لأنك كنت الأفضل، بل كونك الأكثر همجيةً.

قال العم لعثمان الذي أصبح يحاذيه، وعثمان الذي يقدر عمه أراد الاعتراض بلطفٍ، ليدفع عنه الاتهام الذي يصمه في قلب مشاعره، قال: الخناقة كانت بسبب..

- بسبب نبوتك. قال العم مقاطعًا وهو يمس بطرف عصاه عضو عثمان، وترددت ضحكته الصافية، وتجاوبت معها الجبال القريبة العالية، وقهقه الصدى، وعثمان الذي بوغت بحركة العم، لم يمنع نفسه، رغم الخجل، من الابتسام وهو يطأطئ رأسه، فأكمل العم بصوتٍ هادئٍ مُتَّزنٍ: كان بإمكان الرجل أن يسحقك لو تخلى عن هلعه على الشرموطة التي جرَّتكَ خلفها كبهيمةٍ.

كانت العائلة، في طورها الثاني، قد أبقت بعض أبنائها بالصحراء، كنقط اتصال بين الحضر والبدو لتأمين طريق القافلة القادمة من الجنوب، كانت حمايةً ومراقبةً، كانت مهمة تلك النقط التعامل مع أهل الصحراء؛ البشارية والعبابدة، عبر التعامل معهم والتزاوج منهم، وكسبهم كأدلَّةٍ لدروب الصحراء المتشعبة ومعرفة الطرق الخلفية والبعيدة عن العين ومطامع قطاع الطرق ولصوص الصحراء، ولما انهارت التجارة وخطت الحدود بين الدول، كان أبناء العائلة قد تحولوا لصحراويين، قلبًا وقالبًا، لا يستطيعون الانفصال عنها، وعن حياتهم التي نبتت هنا، وإن ظل البعض منهم على اتصالٍ بالبيت الكبير، بيت الرَّحَّال، وكان منهم والد عبد الله البشاري، العم، الذي يضرب الآن بالصحراء نحو مضاربه بعد أن أخذ عثمان معه.

كان عثمان، وهو طفل، يرى الاهتمام الفائق الذي يحل بالبيت عن قدوم العم البعيد من قلب الصحراء، كان يأتي ويبقى لمدة ليلة، يأخذها ساهرًا هو ووالده، ووالد مصطفى وبعض الأقارب الذين عرفوا بمقدمه، يحكون

ويسترجعون تاريخ العائلة بكثير من الأسى والحنين، وكان مصطفى يرابط بالديوان، يستمع لحكايات العم، وشوق بداخله يتعاظم لرؤية الصحراء والذهاب مع العم، وفي مرة تجاسر أمام الجميع وأخبره برغبته، وضحك الحاضرون، والعم طيّب خاطره، لكنه في الصباح وجد نفسه راقدًا فوق دكَّةٍ بقلب الديوان وكان العم قد غادر، بكى عثمان الطفل، من القهر، قهر الخديعة والترك. في المرة التالية، تحاشى العم تمامًا، حتى عندما طلبه العم لم يذهب، لكنه راح ونام بجوار جمل العم المربوط بالخارج، بالتحديد فوق رحله، فلابد للعم أن يوقظه كي يأخذ رحله، وحين صحا وجد نفسه بوسط الصحراء فوق الجمل خلف العم، وبعدها عرف الطريق، وكلما ضاقت به أحواله، أو ضربه الحنين، ذهب هناك، خاصة وأن أبناء العم يماثلونه في السن.

كان الليل قد سرى، وأمامهم يوم طويل حتى الوصول، أناخ العم جمله وفعل عثمان، أخرج العم عدة القهوة، ولقط عثمان أعوادًا من الحطب، وأشعل النار، صب لعمه قهوته المرة التي يفضلها، ويأخذ عدتها معه أينما ذهب، أراد عثمان الحديث فيما جرى، كي يحرر عمه من سوء الفهم، وكي يتفهم موقفه ومنطق فعله، لكن العم كان قد انصرف للسماء، يتأمل نجومها، وحين فرغ من شرب القهوة، تمدد جاعلًا من ذراعه وسادة، فقام عثمان ولمّ عُدَّة القهوة، وأهال على الجمرات المتقدة بعضًا من الرمل، واتَّكأ على صخرةٍ، وراح يستحلبُ الوقائع التي جَرَتْ، كانت نعيمة حاضرة، صوتها يهمس داخله، لكن صوت العمِّ قاطعه: كبرت يا عثمان. انتبه ونظر

نحو عمه، فوجده يقوم من مرقده، وهو يقول: هيا بنا. كان عثمان قد اعتاد أفعال العم، لكن الآن إلى أين؟ أراد أن يسأل، فقال العم وهو يركب الجمل: خور السَلَم.

من أراد أن يجرب رجولته، فلينزل وادي السلم، حكاياتٌ كثيرةٌ عن العفاريت والجن والوحوش التي تتخذ من الخُور مكان إقامةٍ، ورغم الرجفة التي انتابت عثمان لما سمع صوت عمه ينطق بالاسم، لم يعترض فهو يعرف عمه؛ تاجر الإبل، فرغم وداعته الظاهرة لكن قسوته تفوق الحدود، وهما بقلب الصحراء، يمكن أن يرديه قتيلًا بطلقةٍ واحدةٍ، ويتركه جيفةً، ويمضي دون أن يرفَّ له جفنٌ، أو يشعر بذنبٍ، هل القسوة بنت الصحراء والصخور والجو الملتهب؟ أهذا واحدٌ من قوانينها، وقوانين الحياة بها؟ لا مكان للخوف في قلوب الرجال أو عقولهم، هم رجال، يجب أن يكونوا، ليستحقوا الحياة بجدارة هنا، وهو ألم يحاجج برجولته، أم أن تلك مختلفة؟ وجال بخاطره أنه لم يكن يصدق بوجود هذا الخور، كان يعتبره مكانًا للحكايات مثل أماكن ألف ليلة المتعددة والكثير منها ليس له وجود، مكانًا يمكن أن تحدث به بعض الخوارق التي لا تنتمي لعالمنا الزائل والزائف هذا. كان أبناء البشاري، عمه، قد قصوا وفصَّلوا القول في حكاياتٍ كثيرةٍ عن الخُور، الذي يقود العم باتجاهه الآن، هل عقل العم قد اختل ليذهب لمكان ليس له وجود إلا في خيال الشعراء ورواة الأحاديث؟ قالت الحكايات عن كثيرين ذهبوا للبحث عنه ولم يرجعوا أبدًا، وآخرين ظلوا يبحثون عنه دون جدوى، وحين عادوا كانت حياتهم قد ذهبت.

التحدي يقوم على الذهاب للخُور والعودة بعود من شجر السلم المتكاثر به، ليس معه سلاحٌ سوى بلطةٍ كي يقص بها الفرع، ويدفع بها عن نفسه إن لزم الأمر، والأمر لن يخلو، أو يضرب بها رأسه، كما روت الحكايات، إن أراد أن يوقف الرعب الذي حاصر قلبه. سارا طول النهار الذي أهلَّ عليهم، وكانا قد أخذا دربًا مختلفًا، لا يقود نحو المضارب، كان عثمان يتساءل طوال الطريق متي يتوقف هذا الجنون، ويرجع عمه إلى الدرب الصحيح؟ لكن العم لم يكن ليتوقف حتى مع اشتداد الحرارة، وطلب الأجساد للّقمة، أو لإراحة الجملين، كان يتحرك العم متقدمًا، ودون حوارٍ يخفف من هواجس عثمان، الذي كان يترك جسده للاهتزاز تبعًا لحركة الجمل، وهو يطالع الجبال المتجهمة القاسية التي تحيط بهما، محاولًا تخمين قصد العم، وهدفه من جَرِّهِ لهذا الوادي.

أقبل الليل وهما يسيران بنفس الوتيرة، وإن كانت الجبال أخذت تضيِّقُ الدرب أمامهما، ويزداد ارتفاعها، حتى أنهما لم يتمكنا من السير متحاذيين، وعثمان الذي أسلم أمره لم يعد يهمَّه كيف ستجرى الأمور. عند منتصف الليل توقف العم، وخيل لعثمان أنه السَحر، نزل العم وهو يحمل بلطةً، وعثمان الذي ترجَّل وهو يتلفت حوله، أعطاه العم البلطة، قال: نبوتك هناك.. بقلب الوادي.. يناديك. وأشار إلى المنفرج الضيق بين الجبلين، تقدم معه خطوتين، ثم توقف وهو يقول: يجب أن تعود قبل شروق الشمس. ودفعه للأمام.

انفتح المنفرج على وادٍ واسعٍ تحيطه الجبال من كل جانبٍ، وقمرٍ لطيفٍ كسا الوادي بنوره، وبدت الأشجار كأنها أشباح واقفة في انتظاره، وريحٌ هادئةٌ تداعب الورق المدبَّب، فتحدث أزيزًا كأنه نذيرٌ، وعثمان تلفَّت خلفه، فكَّر في التراجع ومواجهة العم، فإذا كان الخُور موجودًا، فإن الحكايات صحيحةً، ويبقى اختبار الرجولة جديًا، قال: عليّ أن أقطع فرعًا تطوله يدي. كان يُمَنِّي نفسه بالعودة بحيث لا يسمح لقدميه بالتورط بأرض الوادي.

تقدم بحذرٍ، وسمع كأنما صوتٌ يناديه باسمه، تلفت وهو يقول: بدأت ألاعيب الخور. رفع البلطة تحسبًا لأيِّ أذى قد يهاجمه، بدا الصوت ضعيفًا، كأنما يعاني، وإن بدا ساحرًا، توقف عثمان، وجاءه الصوت متوجعًا، كأنما يرجوه ليتقدم، صوت يئنّ من ثقل الشهوة الضاغطة، هتف عثمان: نعيمة. وحرك قدميه تجاه البقعة التي ظن أن الصوت ينبعث منها، وتذكر لحم نعيمة، وهبت الحرارة ببدنه، وضجَّ دمه بالنداء القاسي، خبطته فروع الأشجار، مد يده وقبض على الفرع القريب، ورفع البلطة عازمًا على قطعه، ليأخذه دليل رجولته ونزوله للوادي، لكن الذراع القابض على البلطة لم يتحرك، كأنما شُلَّ، أفْلتَ عثمان الفرع وقد أصابه الهلع من توقُّف ذراعه، لكن ذراعه تحرَّك، قبض على فرع آخر، وحدث مثلما حدث، والصوت تردد ضاحكًا، مختلطًا بصرخةٍ لوحشٍ، ترك عثمان الفرع وقد أيقن بصعوبة مهمته.

سمع حفيف ثوبٍ يتحرك بين الشجر، تقدم موسعًا من خطواته بين الأفرع المتشابكة، كأنما يخوض في بحرٍ، و الريحُ تتلاعبُ حوله، فتحوِّلُ الظلال لمخلوقاتٍ شائهةٍ توشك على الفتكِ به، كان وجيب قلبه يتصاعد، و أصوات الوحش تقتربُ، خمن ربما تكون لسبعٍ، تلفت بسرعة فشاهد الثوب الأبيض يمرُّ بجواره، أضواء القمر، رغم الظلال جعلته يرى المكان الذي اختفى به الثوب، وجاء الهمس منغمًا: عثماااان.. عو.. ثــ.. فاندفع غير عابئٍ بصوت الحيوان المنذر باقترابه، ولا خبط الأفرع بوجهه، ولا الدماء التي تنفجر بسبب الجروح التي أحدثتها الأوراق المدببة والأشواك، كان النور الذي خطف بصره يجرَّهُ باتجاه الثوب والصوت، ومن بين الأشجار رأى نعيمة، وسمعها تضحك، كانت ترقص رقصتها العارية التي رقصتها بحجرتها، تتمايل بين الأشجار، تتخفى بين الأفرع مستغلةً الظلال، كانت تختفي من بقعةٍ لتظهر في بقعةٍ أخرى، وهو المتحيِّر ارتخت قبضته على البلطة، وانتصب عضوه، وتقدم وجسده يرقص، كانت نعيمة تمد يدها تناديه، تسحبه إليها، كان حماسه للتمرغ بجسدها اللين قد بلغ مداه، رفع البلطة يرقص بها، كان يقتربُ عازمًا على الإمساك بالجسد الشهيِّ، وجال بخاطره أيلعن العم أم يشكره؟ وبدأت الريح بعزف الموسيقى، وتمايلت الأشجار، ورقصت الظلال، وسمع كأنما الجبال تزلزلت، ولطف ساحرٍ غمر المكان، مد يده القريبة إليها، يرجوها ليرقصا سويًا، يعريها وتعريه، تقبض على نبوته بالقوة ذاتها، وبالحنان المصفى ذاته، حتى يفيض حليب المحبة بينهما ويغمر الأنحاء، فلا يبقى بهذا الكون سواهما.

اقترب ومد اليد للقبض عليها، لكنها زاغت منه ودخلت في غصنٍ، ويده بقوتها قبضت على الغصن، فمال الغصن نحوه، ونفخ في وجهه، تراجع مذهولًا، فقد صار الغصن حيّةً هائلةً، انتبه للبلطة في يده، وبعزم الخوف الذي يهاجمه، ضرب الغصن الزاحف، طقطق الغصن وسكنت حركته، وضربة ثانية كان تخلّص الفرع من أصل الشجرة، واندفعت دماء، قال: علامتي. وجرَّ الغصن، والدماء أخذت في الفيضان وعادت الأصوات والظلال لسابق عهدها، هرول وهو يخمن الطريق كي يخرج من قلب الغابة، رأى الدماء تتحرك خلفه، عالية وكانت كافيةً لإغراقه، وبدأ النور في الظهور، وقرب شروق الشمس، والتي معها سيتحول كل ما في الخور إلى صخور، هذا ما قالته الحكايات القديمة. كان يجري يدٌ تمسك بالبلطة، والأخرى تجرُّ الغصن، وطوفان الدم والأصوات ونور الشمس الموشك، طالت المسافة، وزاد التهديد، لم يكن يدري على أيِّ نحوٍ يفكر؟ كانت أمامه شجرةٌ كبيرةٌ وعاليةٌ، ولم يكن أمامه مهربٌ من الدم سوى اعتلاء الشجرة، ولما صعد والدم خلفه، رأى الجبال، وقفز من الشجرة، فقد بان طريق الخروج، فقط عليه بالإسراع.

كان العم جالسًا فوق أحد الصخور القريبة، وظهره لمدخل الخور، ويحتسي قهوته الصباحية، قال: يا عم.. ولم يكمل، سقط والدماء تطفر من بدنه، ويده تقبض على الغصن، الذي سيصبح النبوت الذي سيلازمه طوال حياته. قام العم وهو يبتسم، لمّ جسد ابن أخيه المرتعش بفعل الحمى التي

ضربته، وضعه فوق الجمل وساق تجاه المضارب البعيدة، وكانت الشمس لتوها تشرق.

حين أفاق، بعد ثلاثة أيام، سحبه العم خارج الخيام، غير سامحٍ لأبنائه بالاقتراب منه، مستثنيًا من هذا الحظر، فاطمة، ابنته، كان عثمان في نوبات يقظته القليلة يجدها بجواره، كانت تمرضه، تضع بعض الضمادات المغمورة في الماء المبرَّد، أو بعض السوائل الدافئة، كانت تقوم بتغيرها بانتظام، وأيضًا تسنده كي تسقيه منقوع بعض الأعشاب الصحراوية، والعم يراقب كصقرٍ من مكمنه القريب، عند باب الخيمة.

خارج الباب جعله يخطو فوق رمس رمليٍّ، وأمره أن ينبشه ويخرج ما به، كانت عصا السَلم، وقد شذَّبها العم، قصَّ الأطراف الزائدة، ودسَّها تحت الرمل واضعًا فوقها الحجارة الثقيلة، حتى لا يعوج النبوت، أخرجه عثمان، وهزَّه بيده، كان خفيفًا ومرنًا، وقويًا، وتبسمت روحه، وهزَّه الشبه الذي يجمعه ونبوت العم، أراد أن يسأله، لكن العم كان قد سار.

في الساحة الواسعة خط العم بنبوته دائرة، كان عثمان بداخلها، تقدم العم داخلًا الدائرة وهو يقول: كل ما ينتمي لخارج الحلقة لا يهمنا، ما يهمنا الآن، هو أنت وأنا، والعصي بأيدينا.

لم يفهم عثمان قصد العم الذي لم يوضح، بل رفع نبوته عاليًا، وقال آمرًا: ارفع عصاك. وعثمان الذي يدرك مقدرة عمه على اللعب بالعصا، ومهارته التي لا يمكن مجاراتها، لم يأخذ الكلام جديًا، فرفع نبوته بتهاونٍ، قال العم

الذي كان يحجل عند حواف الدائرة: من يسيطر على هذه الدائرة هو الفائز. وبحركة طائرٍ خفيفٍ هاجم، وبضربةٍ أطار نبوت عثمان، والثانية كان في جنبه، ضربة حقيقية، موجعة، تأوَّه عثمان، والعم ضحك، قال: دافع عن نفسك.

التقط عثمان العصا، بات واضحًا أن العم مُصرًّا على القتال، تلقى الضربة ولكن ليس بالقوة الكافية، فتخلل ذراعه، وحركة العم السريعة عاجلته بالثانية، والثالثة مسَّتْ رأسه، قال العم ساخرًا: أنت فين؟ تراجع عثمان، والعم حذره مشيرًا لحدود الدائرة، فوقف عثمان، والعم هاجم وهو يقول: ما رأيك بفاطمة؟ وعثمان تساءل في نفسه عن تكرر هذا الاسم داخل العائلة، أهي قلة أسماءٍ أم هناك سرٌّ؟ وعندما سينجب ابنته الوحيدة سيحتار، ولن يجد اسمًا بديلًا، فيترك المهمة لزوجته، باعتبار أن هذا الأمر يخص النساء، أما الذكور سيقوم هو باختيار أسمائهم، ستقول الأم: زينب. وهو لن يعترض، لكن الآن ماذا يقصد العم؟ في ذات الوقت عليه أن يصد هجمات العم المتوالية، وجد نفسه موزعًا، وعصا العم تضربه بلا رحمةٍ في ساقه.

وقف العم بقلب الدائرة واستند مائلًا عل نبوته، قال: العصا مثل السيف، قد تقتل صاحبها الغشيم، هي زيادة لطول الذراع، لكن لابد من السيطرة عليها، يجب أن تخضع لهنا. وأشار إلى رأسه، وعثمان الذي يعرج لم يحاجج في ألغاز العم، وكانت الشمس قد اشتدت، فأراد الاكتفاء، فأكمل

العم: سأتلقى.. هيا هاجم. وامتثل عثمان، طوح العصا وضرب، فتلقتها عصا العم بضربة جعلتها تفلت من يد عثمان، الذي أصبح مكشوفًا للعم، قال العم بغضبٍ: أنا لست عمك الآن.. كن رجلًا. أثارت الكلمات الحمية داخل عثمان، هز العصا بيده مختبرًا متانة ذراعه ومرونة النبوت وهاجم بضراوة، والعم يدافع دون أن يتخلى عن موضع قدميه، فقط يسد الأبواب التي يحاول عثمان فتحها لينفذ منها لجسد العم، كان ارتطام العصي يصم الآذان، والرمل بدأت حباته في الاتقاد، وعثمان يحاول استحضار مهارة جسده، قال في نفسه: على الأقل أنا الشاب. تراجع قليلًا متلاعبًا بالعصا، فقط يريد مسه، وخبرة العم وحنكته العميقة كانت تنظر لحركات جسد عثمان بعين التقدير لكن دون تورُّط، فقال العم: لم تجب على السؤال؟ لم يعرف عثمان أي سؤال يعنيه العم! وبدا له أن العم يريد أن يشتت تركيزه، لتطيش ضرباته، فرد كي يتخلص من الموقف: سأبقى هنا. كان يتراقص وهو يقترب من العم، وسدد ضربةً مباغتةً، قال: سأتزوَّج من فاطمة. ضحك العم وهو يتَّقِي الضربة، قال العم: عليك إذن تخطي هذا النبوت. وهزَّ العم النبوت في عين الشمس قبل أن يكمل: هذا النبوت قادم من خور السلم. وهزت المفاجأة عثمان وهو يرى عمه يرقص بالنبوت كطير في لحظة سعادةٍ نادرةٍ، قال عثمان في نفسه: ما لي أخرج من رهانٍ حتى أدخل في غيره؟ قال العم كأنه يكمل حديث ابن أخيه: حياتنا كلها رهانٌ، علينا أن نخوضها كرجال بملء قلوبنا القوية.

تلاقت العصي معلنة عن قوة الرجال وجدارة القلوب لمواجهة الحياة رغم رهاناتها القاتلة.

ختام

كان عليّ أن ألملم أوراقي وأرحل، ما جرى فقد جرى، وماذا قال أبو تمام؟ أيهما أصدق؟ حين أخذت الشاي في الصباح من زينب، أردتُ أن أسألها عن بلح النَّخلة، كنت أودُّ تذوقه، واستحلاب طعمه، ربما كان من المناسب أن.. لكني تأملت زينب، ابنة تاجر الجمال المولودة بقلب الصحراء، أردت أن أخبرها عن الرهان الجديد وخطبة محمد وحلمه، لكني نفضت رأسي وأنا أقول: هل هذا مهم الآن؟ أخذت الشاي ورجعت للديوان، كان بعض أولاد العمومة قد رحلوا مبكرين، وكذلك الغريب، الذي لم يقم واحدٌ منا؛ محمد ومجاهد وأنا، الباقون باستبقائه حتى يتناول إفطاره معنا، كان حسُّ العداء واللامبالاة متبادَلًا؛ وضعت صينية الشاي على الدِّكَّة، ورحت أنظر للرسوم على الحائط، فبانت حلقة تحطيبٍ حولها جمعٌ غفيرٌ، والمتباريان بقلب الحلقة، ارتفعت العصي ونزلت متضاربة، ورددت الباب مغادرًا، وأتاني صوت الدوي، وكانت الدنيا قد تغيرت.

بهاء طاهر
السّيرة في المنفى

WACINY LAREDJ
رواية
واسيني
مَيْ
لَيَالِي إيزِيسْ كُوبِيَا
ثلاثمائة ليلة وليلة في جحيم العصفورية
بردية للنشر والتوزيع

فكر
2017
فاطمة ناعوت
حوار مع صديقي
المتطرف

أشرف الخمايسي
الجِبريليَّة
قصص
بردية / أجيال - للنشر و التوزيع

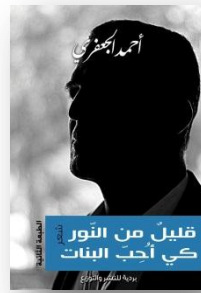

أحمد الجعفري
قليلٌ من النّور
كي أُحِبَّ البنات
شعر
الطبعة الثانية
بردية للنشر والتوزيع

Nabil Soliman
رواية
نبيل سليمان
ليل العالم
داعش في الرّقة
بردية للنشر والتوزيع

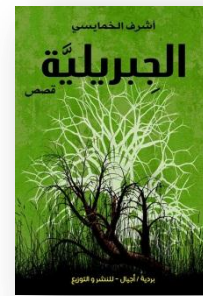

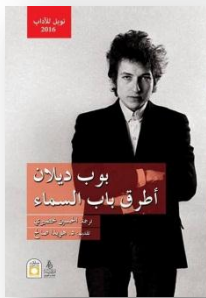

قصص
ماجد شيحة
الحكاية المجهولة
من بلاد العصافير

MOUSTAFA MOUNIR
رواية
مصطفى منير
قيامةُ الظِّل
الذي كان على حق
بردية / أجيال - للنشر والتوزيع

نوبل للآداب
2016
بوب ديلان
أطرق باب السماء

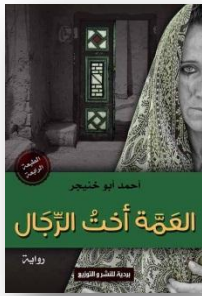

أحمد أبو خنيجر
العَمّة أختُ الرِّجَال
رواية
بردية للنشر و التوزيع

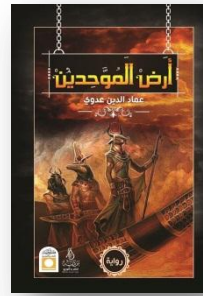

أرضُ المُوَحِّدِين
عماد الدين عدوي
رواية

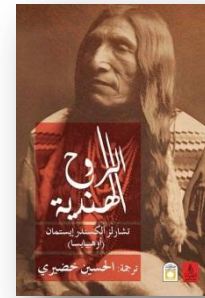

الروح الهندية
تشارلز ألكسندر إيستمان
(أوهيسا)
ترجمة: الحسين خضيري

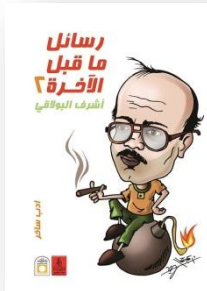

رسائل
ما قبل
الآخرة ٢
أشرف البولاقي
أدب ساخر

مضر عدس
رحلة إلى اسطنبول
رواية
في حب سوريا

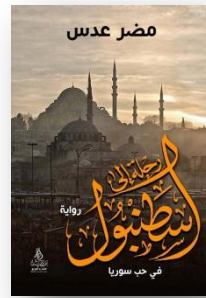

لا نصّ يجب أن يكتمل
عبد السلام الشبلي
شعر

أشرف الخمايسي
الفرس ليس حرًا
بردية / أجيال - للنشر و التوزيع

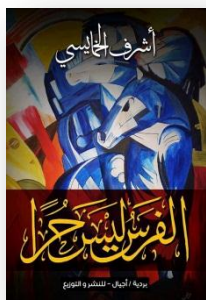

بردية
رحلة من الإيمان
إلى الإيقان
د.سوسن حسني

أَكْتُبُ بِالدَّمِ الأَسْوَد
حسن عامر
الديوان الفائز بجائزة بيت الشعر بالقاهرة
بيت الست وسيلة ٢٠١٥ م
شعر

جهاد السيسي
ما تريد أن
تسمعه النساء
قصص
بردية للنشر والتوزيع

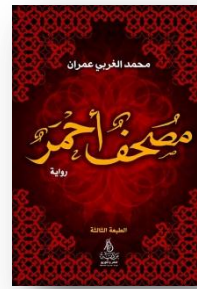

محمد الغربي عمران
مُصحف أحمر
رواية
الطبعة الثالثة

شريف كمال
استراحة
الملائكة
قصص
بردية للنشر والتوزيع

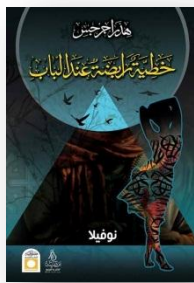

عزمي عبد الوهاب
أشباح
في طريق البيت
ثنائيات الحياة في الثقافة والأدب

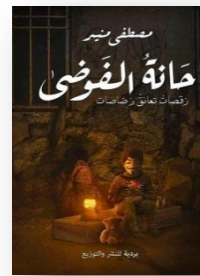

مصطفى منير
حانة الفوضى
رقصات تعانق رصاصات
بردية للنشر والتوزيع

هدرا جرجس
خطية رابضة عند الباب
نوفيلا

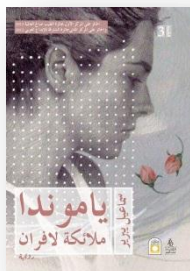

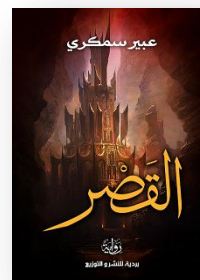

.. أحمد جمال عيد ..
القطب الأعظم
المسافرون بلا متاع
رحلة صوفية تشكيلية
تقديم: صلاح بيصار

عبير سمكري
القصر
رواية
بردية للنشر و التوزيع

يامو ندا
ملائكة لافران

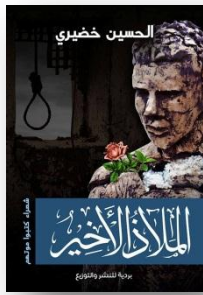

AMR ELSHEIKH
عمرو الشيخ
شعر
بتوقيت النزيف
بردية للنشر والتوزيع

فيليب فكري
السلابكس ملهلط

الحسين خضيري
شعراء كتبوا موتهم
الملاذ الأخير
بردية للنشر والتوزيع

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm